











قِيَامُ كَوْلِ الْمَمَالِيكَ الثَّانِيَّةِ

# المكتبة العربية

تصدُّعًا

وزَّارَةُ الْعُلُومِ وَالْإِسْلَامِ

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لإدارة الشؤون والآداب والعلوم الاجتماعية





# تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

تقسم التاريخ المصرى القومى لى عصور متولدة بعضها من بعض ، ثم لى دول متسلخة بعضها من بعض ضرورة عملية عامة لفهم التاريخ كله . وموضوع هذا الكتاب دراسة جديدة فى أصول دولة من هذه الدول فى مصر ، وهى دولة سلاطين المماليك الثانية أو دولة المماليك البحرية على قول المؤرخين السالفين مع بحث جديد كذلك فى قيام هذه الدولة فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، حين كان خطر تيمورلنك وجنوده مندرجاً بالهجوم على الشرق الأوسط كله .

وهذا الكتاب الجديد محدود بعنوانه ، ولذا تركزت فصوله فى بحث جذور هذه الدولة وحوادث نموها وقيامها فحسب ، فاشتمل الفصل الأول منها على وصف هذه الجذور التى ترجع لى تكوين فرقة المماليك البرجية أيام السلطان قلاوون ، زمن الدولة المملوكية الأولى ، وهى المعروفة كذلك باسم دولة المماليك الأتراك . والمعروف أن هذا السلطان قلاوون حرص على أن تكون هذه الفرقة المملوكية الجديدة من البحرية لا من الأتراك وغيرهم من الأجناس المملوكية الأخرى . واستطاع المؤلف أن يبرهن على ذلك كله بدراسة دقيقة لتراجم الشخصيات المملوكية البحرية فى أثناء الدولة المملوكية الأولى وأن يستخرج منها بعض عناصر النمو التى أدت لى قيام هذه الدولة المملوكية الثانية .

وفى الفصل الثانى من هذا البحث تتبع المؤلف محاولات الأمير البحرى بركات فى سبيل إزالة سلطان المماليك الأتراك وذراريهم وإقامة المماليك البحرية أخيراً مكانهم فى الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وذلك بإعلان نفسه سلطاناً بالقاهرة ودمشق سنة ١٣٨٢ م .

ثم اشتمل الفصل الثالث على بداية حكم هذا السلطان البحرى الجديد ، ومحاوله خلع ، وإحلال الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة محله ، وهو مآدى لى كثير من القلق الداخلى .

وشغل هذا القلق الداخلى صفحات الفصل الرابع ، حيث أوضح المؤلف مدى إيمان السلطان بركات فى سياسته العنصرية البحرية ، ونجاحه فيها ضد بقايا المماليك الأتراك .

وانتقل المؤلف من هذه المرحلة التكوينية الناجحة لى موضوع المشكلات الخارجية

التي واجهت الدولة الجديدة ، وأولها ظهور تيمورلنك ، وتهديد ذلك العملاق للسلطان برقوق ولكيان دولة المماليك الثانية ، وزحفه نحو الشام المملوكية ، واستيلائه المشهور على دمشق . ثم جعل المؤلف حوادث الاحتلال التيمورى لدمشق بداية موضوع الفصل الخامس ، الذى اشتمل كذلك على مراحل العلاقات الأخرى بين الدولة المملوكية الثانية وجيرانها من العثمانيين وغيرهم فى الشرق الأوسط ، زمن السلطان برقوق وابنه السلطان فرج حتى سنة ١٤١٢ م ، وهى السنة التى توفى فيها هذا السلطان الثانى والتى ينتهى بها هذا البحث .

وسوف يلمس القارئ مدى جهود المؤلف فى تنسيق هذا البحث ، ولاسيما حين يصل إلى مجموعة الوثائق العربية والفارسية المخطوطة والمطبوعة الخاصة بعلاقات تيمورلنك بالسلطان برقوق وابنه فرج ، إذ تدل هذه الوثائق على أن هذه الدولة المملوكية الثانية أدت خدمة جليلة فى التاريخ المصرى القومى بإيقاف الخطر التيمورى عند حد معلوم .

محمد مصطفى زيادة

## مقدمة المؤلف

موضوع « قيام دولة المماليك الثانية » يمثل جانباً هاماً في تاريخ المماليك في مصر وسورية ، وموضوع الأهمية يتضح في نواح ثلاث :

الأولى ؛ أن دولة المماليك الثانية قامت على أسس تخالف الأسس التي قامت عليها دولة المماليك الأولى — وإن اشتركت معها في بعض اتجاهاتها — إذ اتخذ أصحاب هذه الدولة العنصرية العنصرية سلاحاً لإزالة دولة المماليك الأولى ثم استمرت العنصرية إطاراً عاماً لسياساتهم الداخلية وميزة واضحة لدولتهم ، بل امتزجت هذه النعرة بدمائهم حتى بعد سقوط دولتهم في أيدي العثمانيين . وبلغ من شدتها أنه لم يكن في وسع العثمانيين العمل دونهم فأشركوهم معهم في الحكم .

أما الناحية الثانية لأهمية دراسة الموضوع فتظهر في مدى ما أحدثته هذه العنصرية الوافدة من آثار في نفوس المماليك الترك ، وفي مدى إظهارها للمحاولات العربية المختلفة للوصول إلى الحكم بعد أن نجح برقوق في نقل السلطنة إليه .

والناحية الثالثة تكمن في السياسة الخارجية لمؤسس هذه الدولة ، هذه السياسة التي نتج عنها احتلال دولة المماليك الثانية لمركز الصدارة في الشرق الأوسط ، فضلاً عن تبوئها زعامة العالم الإسلامي سياسياً وثقافياً برغم ما طفحت به من مؤامرات وفتن .

وهكذا نلاحظ أن وضع المماليك الذين حكموا القاهرة في قائمة دولة واحدة أمر أصبح في حاجة إلى إعادة نظر ، بسبب ما بين الدولتين من اختلاف في الاتجاه العنصري وفي طريقة قيام كل منها ، وفي نظم الحكم والإدارة كذلك .

ولا شك أن الاختلاف العنصري صفة هامة ، لاسيما أن تيار الاتجاه العنصري أخذ في الظهور منذ عهد دولة المماليك الأولى ، حين تكتل الجراكسة في فرقة المماليك البرجية ، وحاولوا طوال القرن الرابع عشر الميلادي الوصول إلى الحكم . حتى إذا نجحوا في هذا الأمر في عهد الناصر محمد ، كان لهذا النجاح نتائج الوخيمة عليهم ، إذ حلت النكبات بفرقة البرجية ، وصار مرجع هذا كله ما اتجه إليه الجراكسة من التعصب لعنصرهم .

على أن سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد في أواخر دولة المماليك الأولى ، وما صاحبه من ضعف سلاطين هذه الفترة ، وسيطرة كبار الأمراء على الحكم حتى تشبهوا بسلاطينهم ، فجلبوا أعداداً كبيرة من المماليك وفتحوا الباب أمام الوافدين من الجراكسة وغيرهم للقدوم إلى مصر في وقت قل فيه جلب المماليك الترك بسبب الإغارات المغولية على أواسط آسيا ، مهد هذا كله للجراكسة محاولات جديدة للاستفادة من ضعف الدولة المملوكية الأولى في تأييد مركزهم .

ومع أن المملوك برقوق الجركسى لم تكن تجرى في عروقه دماء سلطانية ، فإنه استطاع أن يضع خطة للقضاء على دولة بنى قلاون ، وقضى بذلك على فكرة الوراثة في هذا البيت ، ونقل السلطنة إلى الجراكسة بطريقة وضحت فيها الاتجاهات العنصرية العنصرية التي لم تفارق طبيعة الجراكسة أبداً .

ولنجاح فكرة الجراكسة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي نتائج بعيدة المدى إذ أدى إلى تيار من الهجرات الجركسية إلى مصر طوال دولة المماليك الثانية ، وصار هؤلاء الجراكسة أثر كبير في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وأُهب تصبهم الثورات العربية في هذا العصر للمطالبة بالحكم . ولم يقف نفوذ الجراكسة في مصر حتى بعد الفتح العثماني لها ، بل صاحبتهم نعرتهم العنصرية في تاريخ مصر الحديث .

وضع برقوق لدولة المماليك الثانية اتجاهات واضحة ، فوقف في وجه المغول والصليبيين ، واحتفظ بزعامة دولته للعالم الإسلامي ، وأكد صداقتها مع الدول التي لها معها مصالح أدبية أو مادية .

غير أن تتبع الناحية العنصرية لم يكن أمراً سهلاً لكثرة الشخصيات التي ظهرت على مسرح السياسة في دولة المماليك الأولى . وأعانى على تتبع أصول هذه الشخصيات المصادر التي ترجمت لأعيان هذا العصر مثل « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » لابن تغرى بردى ، « أعيان العصر وأعوان النصر » ، « الوافي بالوفيات » لصالح الدين بن خليل الصنفى ، « عيون التواريخ » للكتبي وغيرها مما ورد في حواشي البحث .

على أن متابعة الاتجاهات العنصرية وقت قيام دولة المماليك الثانية لم تكن واضحة في كل المصادر ، ولكنني تمكنت من الوقوف عليها وعلى دوافعها ونتائجها من بعض المؤرخين. الذين امتازوا بالدقة في كتاباتهم وفي مقدمة هؤلاء المقرئى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » ، « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » وابن الفرات فى « تاريخ الدول والملوك » كما وجدت بعض النصوص فى « الدرر الكامنة » فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ، وقد أوضحت هذه



النصوص لإحساسات الترك في دولة المماليك الأولى ومدى خوفهم من سيطرة العنصر  
البحركسى .

على أننى لم أستطع العثور على ترجمة قائمة بذاتها للسلطان برقوق برغم أن ابن  
دقماق كتب عنه « عقد الجواهر في تاريخ الملك الظاهر » إذ يبدو أن هذه السيرة فقدت  
كما أن بروكلمان لم يذكر عنها شيئاً . وبرغم أن ابن دقماق ذكر في الجزء الثانى من  
مخطوطه « الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين » أنه كتب تاريخاً مفصلاً للحوادث التى  
دارت وقت قيام دولة المماليك الثانية في الجزء الثانى من كتابه ، « نزهة الأنام في تاريخ  
الإسلام » فإن هذا الجزء لا أثر له بين مخطوطات دار الكتب بالقاهرة أو غيرها ، واتضح  
أن النسخة المعنونة بالجزء الثانى من نزهة الأنام برقم ١٧٤٠ تاريخ بدار الكتب بالقاهرة  
ليست سوى قطعة من « الجواهر الثمين » للمؤلف نفسه ، ولم يكن ثمة بد من الاعتماد على  
كتابات ابن حجر العسقلانى ، وابن تغرى بردى ، وابن الفرات ، وابن الخطيب .  
فما ذكروه مفصلاً عن قيام دولة المماليك الثانية وحكم السلطان برقوق . وتعتبر  
مخطوطة ابن الخطيب « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان » وثيقة مهمة لقيام  
دولة المماليك الثانية وتاريخها حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

على أن المراجع الغربية المعاصرة التى كتبت عن حياة برقوق أضافت بعض  
المعلومات التى أهملها كتابنا . ومن مؤلفي هذه المراجع الغربية Bertrand Mignanelli  
الذى عاش في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر وتنقل في الشرق  
وكتب عن حياة السلطان برقوق بعنوان *Ascencus Barcoch* ١ ومن هذا الكتاب  
توجد نسخة بمكتبة جامعة فيينا ونقل عنها *Notes Et Extraits Pour Servir A l'Histoire Des Croisades T. II.*

أما عن حكم السلطان برقوق وابنه فرج وما حدث فيه من تطور شمل نظمه  
فقد احتوت موسوعة العيني « عقد الجمان في تاريخ ملوك الزمان » كما احتوى « ذيل  
تاريخ الإسلام أو الإعلام بتاريخ الإسلام » لابن قاضى شعبة معلومات طيبة عن حكم  
السلطان برقوق . أما ما أحدثه في نظم الحكم والإدارة فيأتى في مقدمة المصادر التى  
استعنت بها « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » للقلقشندي وكذلك « المواعظ والاعتبار  
في ذكر الخطط والآثار » للمقرئى .

واستكملت دراسة الموضوع ببحث موقف جيران دولة المماليك الثانية حين  
عرضت له مع المقارنة بين وجهتي نظر كتاب دولة المماليك الثانية وكتاب الدول  
للمجاورة . فمن ناحية موقف المغول استعنت بكتابات الفرس مثل « ظفر نامه »  
لعل شرف الدين على يزدى والذى نقله إلى الإنجليزية *Darby* ، وما كتبه خاندامير  
« كتاب حبيب السير » وميرخواند « كتاب روضة الصفاء » وهو مخطوط بجامعة القاهرة .

ومع أن هؤلاء الكتاب مالوا إلى معظم تيمورلنك إلا أن كتاباتهم لم تتصف بالمبالاة .  
ومع هذا قابلتها بكتابات ابن تغرى بردى والبسطامى والسلاوى الواردة بالحواشى .  
ولكتاب ابن خلدون « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » قيمة طيبة في شرح  
أحد مواقف تيمورلنك . وقد نشره محمد بن تاووت الطنجى كما نشر Fischel في كتابه  
Ibn Khaldoun And Tamerlane جزءاً من التعريف وهو الجزء الخاص بمقابلة  
تيمورلنك مع جيش السلطان فرج والبعثة المملوكية التى بعث بها الأمراء للصلح مع  
تيمورلنك . ومع هذا فإن ابن خلدون لم يتناول تفصيلات كالتى أوردها المقرئى أو  
ابن تغرى بردى أو العيى ..

ثم عرضت للعلاقات الخارجية مع العثمانيين مستعيناً بما ورد في متون المصادر  
السابقة مع مقابلتها بآراء كتاب الغرب أمثال Oman في كتابه The Byzantine

Gibbons ' Empire في كتابه Foundation Of The Ottoman Empire

أما موقف القرنج من دولة المماليك الثانية فلعل أهم مصدر معاصر هو كتاب  
l'Egypte Au Commencement Du Quinzieme Siècle الذى كتبه  
Piloti ونشره Dopp ، ويبلونى هذا تاجر كبرى عاش في مصر  
أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر . ومع أن كتاباته خلت من ذكر  
شئ عن برقوق فإنه فصل الحديث عن علاقة القرنج بالسلطان فرج .

وفي علاقة دولة المماليك الثانية بالمغرب عثرت في كتاب « التعريف بابن خلدون »  
على خطاب ودى من السلطان برقوق إلى سلطان تونس لإرسال أولاد ابن خلدون الذى  
عزم على الإقامة في مصر . وأضيفت عن السلاوى في كتابه « الاستقصا لأخبار دول  
المغرب الأقصى » . معلومات عن أحوال بلاد المغرب وقتذاك .

وتضاف إلى قائمة المصادر الأساسية كتاب « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين »  
للقامى و « درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » للخزرجى ...  
(عبد القادر بن محمد) ، « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » للخزرجى (أبو الحسن  
على) ، وهذه فصلت الحديث عن علاقة دولة المماليك الثانية بمكة واليمن .

وأحب أن أسدى شكرى العظيم إلى أستاذى الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة  
الذى أشرف على هذا البحث إشرافاً علمياً دقيقاً ، في روح أبوية مملوءة بالعطف الصادق  
الذى أحس به كل من تلمذ على يديه .

والله الموفق

حكيم أمين عبد السيد

## الفصل الأول

# أصول دولة المماليك الثانية

بداية تكوين فرقة المماليك البرجية زمن قلاوون - الجنسية الجركسية الغالية بينهم - العناية الخاصة بهم - إقامتهم في أبراج القلعة وطبائعا - عدد هذه الفرقة - ازدياد عددهم زمن السلطان خليل بن قلاوون - التفريعات الجديدة في تربيتهم - موقفهم من مقتل خليل سنة ١٢٩٢ م - علاقتهم بسلطنته الناصر محمد في تلك السنة - انضمام البرجية الى الوزير الشجاعى ضد نائب السلطنة كتيبا والمماليك الترك - خلع الناصر عميد وسلطنة كتيبا المغول سنة ١٢٩٤ م - معارضة البرجية للسلطان كتيبا - سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦م - معارضة البرجية للسلطان لاجين وقتله على أيديهم - إعادة الناصر محمد الى السلطنة سنة ٦٩٨ هـ ( سنة ١٢٩٨ م ) - ازدياد نفوذ البرجية في الجيش المملوكى - اثرهم في سلطنة بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ - سنة ١٣٠٧ م - ازدياد المماليك الجراكسة في صفوف البرجية - المنافسة بين المماليك الجراكسة والمماليك الترك وإعادة الناصر محمد على أيدي المماليك الترك - اضهاد الناصر محمد للجراكسة في سلطنته الثالثة - ثورات الجراكسة زمن السلطان شعبان بن الناصر محمد سنة ١٣٤٥ م - حركاتهم ضد الترك زمن السلطان حاجى بن الناصر محمد سنة ١٣٤٦ م - ازدياد نفوذ الجراكسة زمن السلطان حسن سنة ١٣٤٧ م - انضمامهم الى جانب أخيه أمير حسين - ظهور الأمير يلبيغا التركى الممرى واقتناؤه المماليك الجراكسة - انقسام اليلبغاوية ومقتل ينجنا سنة ١٣٦٧ م - النزاع بين اليلبغاوية وبين السلطان شعبان بن حسن وطرد اليلبغاوية من مصر سنة ١٣٦٨ م - ظهور برقوق الجركسى - انضمام بقايا اليلبغاوية بالقاهرة الى جانب السلطان شعبان - نجاحهم في إعادة اليلبغاوية المطرودين - سيطرة اليلبغاوية على الجيش .

ترجع أصول تكوين دولة المماليك الثانية إلى أوائل أيام السلطان قلاوون حين عزم حوالى سنة ٦٨١ هـ سنة ١٢٨١ م على تكوين فرقة جديدة من المماليك (١) ، ليكون

---

(١) حدد ابن إياس سنة ٦٨١ هـ تاريخاً ترك فيه قلاوون ركوبه بسبب ثورات الترك وبداية لتكوين ممالك جدد : انظر بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، راجع كذلك ابن دقاق «البحر الثمين» ج ٢ ورقة ١١٧ .

خلاصها له ويكون اعتماده عليها من دون الفرق المملوكية السابقة (١) ، وأطلق قلاوون على أفراد هذه الفرقة اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها (٢) ، وحرص السلطان على أن يكون أفراد هذه الفرقة من عناصر جديدة ، فتنجب جميع العناصر السابقة في الدولة المملوكية الأولى وهم الخوارزمية والتركمان والتتار والأتراك . ولذا غلب على الأجيال الجديدة عنصر الجركس ، الذين جئ بهم من بلاد القسم الشمالي الغربي من القوقاز ، أي حوض نهر قوبان وقسمها من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود إلى أطراف بلاد الانجاز جنوباً ، ومن فروعهم السركس ، والأركس ، والكسا ، والآص (٣) .

وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه القبائل من الشجاعة والفروسية ، فإن بعثتها بين مناطقها الجبلية ووديانها سهل خضوعها للمغول الذين اشتدت غاراتهم على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثالث عشر (٤) . ولذا امتلأت معظم أسواق الممالك بالعنصر الجركسي . ويبدو أن اختيار السلطان قلاوون لهذا العنصر ليكون نواة لفرقة الجديدة كان من أسبابه وفترتهم في الأسواق ، فضلاً عن رخص ثمنهم أثقل بالنسبة للعناصر التركية (٥) .

وظل السلطان قلاوون يعمل على الإكثار من هذه الفرقة حتى بلغت عدتها في أواخر حكمه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك (٦) ، غير أن لفظ الجركس لم يطلق على فرقة الممالك البرجية إلا بعد سنوات عديدة .

---

(١) من هذه الفرق المملوكية السابقة فرقة « الظاهرية » ممالك الظاهر بيبرس التي أيدت الممسمود الخضر بن الظاهر بيبرس ضد السلطان قلاوون ، وعاونته في استمرار بقائه بالكرك - راجع المبنى عقد الجمان ج ٢ ورقة ٦٦٦

(٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ ، ٢٤١ ، السلوك ج ١ ص ٧٥٦ .  
ابن تفرى يردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠  
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ١٤ ص ٣٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة الجركس .

(٤) راجع Morgan : Etudes Arch. & Hist. au Caucase T. II P.P. 250-277.

(٥) تراوح ثمن الواحد من الجراكسة بين ١١٠ ، ١٢٠ ديناراً على حين كان ثمن التركي بين ١٣٠ ، ١٤٠ ديناراً - راجع Heyd : Hist. Du Commerce Du levant T II. p. 559.

(٦) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ : في حديث المقرئزي في هذا الشأن وقوله (وجملهم طوائف) لا يعود الضمير على السلطان خليل بل على السلطان قلاوون يدلل أنه أكد هذا في ص ٢٤١ في نفس المرجع .

وجعل قلاون إقامة مماليكه الجدد في أبراج القلعة أى في مركز إقامة السلطان ودار الحكومة ليكونوا على قوله « كالأسوار والحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين » (١)

ولم تكن أبراج القلعة صغيرة ، بل اتسعت بحيث سمحت لسكنى جميع الفرق المملوكية الجديدة ولا سيما بعد أن أضاف إليها السلطان قلاون سنة ٦٨٣ هـ (سنة ١٢٨٣ م) برجاً عظيماً بجانب باب السر الكبير ، وبنى في مستواه عدة طباق ، وألحق بها عدة قاعات مرخمة (٢) . وأطلق قلاون على هذا البرج اسم البرج الكبير ، مضافاً إلى الأبراج الأخرى وهى البرج الأحمر ، وبرج الزاوية ، وبرج الحداد ، وبرج الرملية ، وبرج الإمام وغيرها (٣) ، على أنه جعل البرج الكبير لمماليكه الجدد ، وفصلهم بذلك عن الفرق المملوكية القديمة التى عرفت في مجموعها باسم الترك (٤) .

وعنى قلاون عناية شخصية بمماليكه الجدد ، ودأب على الجلوس بالرحبة بالقلعة ليشهد تمرين كل طبقة بين يديه بالرمح أو رمى النشاب (٥) ، وهذا فضلاً عن أنواع التربية الدينية المعروفة فى الأوساط المملوكية فى ذلك الوقت . ووضعت ميول قلاون نحو مماليكه الجدد (٦) مما جعل هناك مجالاً لنوع من الطائفية ، وبداية للتنافس العنصرى والحزبى بين المماليك .

وسار السلطان خليل بن قلاون على سنة أبيه فى الإكثار من المماليك الجركس حتى إنه رغب فى زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك ، فاشترى فى حكمه القصير (سنة ١٢٨٩ - سنة ١٢٩٣ م) حوالى ألفى مملوك من أسواق ثغر كفا بالقرم ، وأصبح ذلك الثغر مورداً هاماً للجراكسة (٧) .

غير أنه على حين حتمت النظم المعروفة الأيبارح المماليك القلعة ، سمح لهم

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٠٤ نقلاً عن ابن عبد الظاهر .

(٣) راجع القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤) راجع العريثى : الفارس المملوكى ص ٤٨ .

(٥) ذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان قلاون غير ملابس بمماليكه الجدد بزي أحسن منه

تسهل معه حركتهم - راجع ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

(٦) غالى المقرئى حين ذكر أن السلطان قلاون خص البرجيه بالترقية إلى وظائف

السلحدارية والحمققدارية والباشنكيريه والأوشاقية ، وذلك لقصر المدة التى يمكنهم أن يصلوا فيها

إلى هذه الوظائف . راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٧) المقدسى . نزهة الناظرين ص ٢٥٧ .

السلطان خليل أن يتزلوا منها في النهار بشرط ألا يبيتوا خارجها (١) . وأدى هذا إلى وقوفهم على الأحوال العامة بعد أن كانوا بمجزل عن الناس ، كما أدى إلى ازدياد تعلقهم بالسلطان خليل ، حتى صارت فرقهم تعرف أحياناً بالأشرقية ، وبدأت بذلك المنافسة بين الترك والخراسية .

ومن هذه البداية يتضح أن الأمير بيدرا نائب السلطنة - وهو من الترك - استغل فساد سمعة السلطان خليل بين الناس ، وتمكن بالاتفاق مع الأمير لاجين السلاحدار (٢) وغيره من كبار الأمراء الترك على قتل السلطان وهو في إحدى سرحات الصيد (٣) ، أملاً في إعلان نفسه للسلطنة ، واثارت الممالك البرجية بالقلعة لقتل خليل . ولم تبدأ ثائرتهم حتى استطاع الأمير طقمجي البرجي قتل بيدرا وغيره من الأمراء الترك الذين ظهر أنهم اشتركوا في هذه الفتنة (٤) . ولذا كان من الطبيعي أن يجمع البرجية على اختيار أخى خليل وهو الناصر محمد بن قلاون للسلطنة في المحرم سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣ م) ، وسنه وقتذاك نحو تسع سنوات ، على أن يكون كتبغا المغولي نائب السلطنة وسنجر الشجاعى التركى في منصب الوزارة (٥) .

ثم لم يلبث كتبغا أن استغل صغر سن الناصر محمد بن قلاون وأخذ يستأثر بالسلطة دون سائر الأمراء . وغضب البرجية الذين كانوا السبب في إقامة السلطان الجديد ، وأخذوا في التدبير للملافة هذا الأمر ونسبوا إلى كتبغا تهمة التستر على اشتراك لاجين في قتل السلطان خليل (٦) . وانتهاز الوزير سنجر الشجاعى فرصة كراهية البرجية لكتبغا ليعتصب السلطنة لنفسه ، فلجأ إلى بث الفتن بين الأمراء ، واتهم كتبغا بإهمال شأن الناصر محمد واستطاع في النهاية أن يحدث انقساماً في صفوف الممالك ، وصار العسكر فريقين ؛ فريق مع كتبغا ومعظمهم من الأمراء والمقدمين الترك ، والفريق الآخر مع الوزير الشجاعى وهم فرقة الممالك البرجية (٧) . غير أن ثمة ملاحظة هامة في هذا الصراع الوشيك الوقوع وهى : أن الانقسام لم يحدث على هذا النحو مصادفة ، بل كان

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٣ .

(٢) Wiet:Biographies Du Manhl Safi p. ٢٨٢١ ص ٢٨٢١ .  
288.

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ١ ورقة ١٢٠ .

(٤) Zettersteen . تاريخ سلاطين الممالك ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) ابن تفرى بردى . المنهل الصائى ج ٣ ورقة ٧٨ أ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٧) الكتيبى : صيون التواريخ ج ٥ ورقة ١٠٠ .

نتيجة استغلال كتبها النزعة العنصرية ، إذ أخذ منذ ولايته نيابة السلطنة يعمل على استئالة العناصر التركية من بني جنسه إلى جانبه بإسناد الوظائف إليهم (١) . أما الشجاعى فبرغم أنه تركي فإنه لم يكن في وسعه سوى ضم البرجية إلى جانبه بإتفاق الأموال الطائلة عليهم ، حتى قبل إنه ألفق في يوم واحد ثمانين ألف دينار ، كما زاد من حماسهم أنه أعلن فيهم أن كل من قتل أميراً من الترك من فريق كتبها وجاء برأسه إليه « يأخذ بيته وبركه وإقطاعاته » (٢) . على أننا نلاحظ ناحية هامة أخرى وهي أن انضمام البرجية إلى جانب الشجاعى لم يكن رغبة في معاونته على تحقيق أهدافه في الوصول إلى السلطنة ، بل لهم فهموا أنهم اشتركوا في نزاع شخصى بين الشجاعى وكتبها من أجل تأييد مركز السلطان الجديد ، فضلاً عن رغبتهم من وراء هذا في الانتقام من كتبها أخذاً بثأر خليل أستاذهم المقتول .

وتوضح المقارنة بين الفريقين المتنازعين أن عدد البرجية بلغ آتئذ نحو خمسة آلاف وسبعمئة في الوقت الذى ذكرت فيه المصادر المعاصرة أن عدد الترك نقص عن هذا العدد كثيراً (٣) ؛ ولذا شعر كتبها بضعف جانبه فلجأ إلى إغراء الأمراء وأجناد الحلقة من الأتراك بالمال (٤) ، كما لجأ إلى الاستعانة بالسلطان الناصر محمد ليطلب الشجاعى للحضور إلى القصر السلطاني بالقلعة والاجتماع لتصفية الخلاف ، ولكن الشجاعى رفض أن يذعن للسلطان ، فخلق بذلك مجالاً للكشف عن نواياه في السلطنة ، كما أنه جعل أتباعه من البرجية يظهرهم كأنهم عصاة على السلطان ، ولهذا اجتمع الأمير كتبها في العاشر من صفر سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣م) ، بأعيان الترك وألبسهم آلات الحرب وأوقفهم في سوق الخليل تحت القلعة ، على حين تحصن الشجاعى بالقلعة نفسها وأغلق بابها ودق الكؤوس داعياً أتباعه من البرجية لحرب المماليك الترك .

وبدأ كتبها حصار القلعة بقطع الماء عنها . (٥) ولإزاء هذا نزل المماليك البرجية يوم الجمعة ١٣ من صفر ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣م) من القلعة على حين غفلة وفاجأوا الأمير كتبها وأتباعه من المماليك الترك وهزمهم ثم طاردوهم إلى خانقاه سرياقوس ومنها إلى بشر البيضاء — بين الخانكة وبلبيس — فاضطر كتبها إلى الفرار إلى بلبيس (٦) .

- 
- (١) راجع الكتيبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٨ .
  - (٢) ابن تدرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٣ .
  - (٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨٠ .
  - (٤) بيبرس الدوادار : التحفة الملوكية ورقة ٦٣ .
  - (٥) ابن تدرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٣ .
  - (٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨٠-١٨١ .

وكاد انتصار البرجية على الترك يحول مجرى الحوادث ويعجل بالقضاء على سلطنة بيت قلاون لولا أن نهضت العناصر التركية بزعامة بكتاش أمير سلاح ، وببىسى أمير مائة ، وبكتوت العلائى أمير مائة ، وأليك الموصلى أمير أربعين واستعانت بالعامّة لمواجهة البرجية وتمكن الترك ن هزيمة البرجية فى واقعة حاسمة عند البئر البيضاء فى نفس الشهر واضطر البرجية بعدها إلى الهروب للاحتباء بالقلعة (١) .

ثم أدرك الترك أن الوزير الشجاعى خدع البرجية حين أخبرهم أنه أراد بحركته الدفاع عن بيت قلاون من سطوة كتبغا ، وأن البرجية لو عرفوا الحقيقة لأظهروا لإخلاصهم وولاءهم للسلطان الذى لم يمس على اختيارهم له أكثر من شهر . ولذا عمدوا إلى حيلة يستجلبون بها خواطر البرجية وذلك بكشف نوايا الشجاعى لفرقة البرجية فاجعلوا السلطان الناصر محمد يصعد على البرج الأحمر ويدعو البرجية إلى طاعته . ونجحت حيلتهم إذ ما كاد نظر البرجية يقع على السلطان الناصر محمد حتى فهموا موقف الوزير الشجاعى على حقيقته ، وما لبثوا أن استجابوا لنداء السلطان وأسرع البرجية وجاءوا إلى الناصر محمد وقبلوا الأرض بين يديه واعتلروا عما قاموا به نحوه بقولهم « نحن مماليك السلطان ولم نخضع يدا عن الطاعة وليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة وانفاق الكلمة وازالة أسباب الفساد عن المملكة » . (٢) .

وهكذا فشل الشجاعى بعد أن بدأ أصحابه من البرجية يتسللون للانضمام إلى كتبغا مما قوى جانبىه وأمانه على إحكام الحصار على القلعة حتى أثار الشجاعى طلب الأمان الذى لم يقبله الأمراء . ولم يلبث الشجاعى أن شعر بضعف مركزه فسلم نفسه لكتبغا ، الذى قطع رأسه ، وطاف المشاعلية بها فى الشوارع والبيوت ، ودقت البشائر معلنة انتهاء الفتنة (٣) .

والواقع أن هذه الحادثة دلت على بداية تحول فى سياسة فرقة البرجية حتى أصبحت فرقة تعمل مع الأمير الذى يغدق عليها مالا أكثر من غيره . ووضحت هذه البداية فى اندفاع البرجية وراء الوزير الشجاعى وخروجهم على نائب السلطنة على هذه الصورة الخاطفة الجريئة ، ومنذ ذلك بدأ الأمراء الترك يعملون ألف حساب لهذه الفرقة الجديدة التى وقفت عقبة أمام أطماعهم فى السلطنة .

ولما كان كتبغا يرغب فى أن يكون له كامل التفوذ فى الدولة بعد أن تخلص من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر قسم ٢ ورقة ١٨٠ .

(٣) الصلدى : أعيان العصر ج ٦ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ ، ٢٢٩ .



الشجاعى ، فإنه وجد أن بقاء البرجية سوف لا يحقق له هذه الرغبة ، ولذا تظاهر بأنه يخشى نشاط البرجية السياسى ضد سلطنة بيت قلاون ، وعمد إلى إخراج طوائفهم المتهمة بالثورة من الأبراج السلطانية بالقلعة لتقيم فى مناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق؛ وطائفة ثانية فى مناظر الكباش بجوار الجامع الطولونى (١) ، وأخرى فى دار الوزارة برجية باب العيد ، كما سجن عدداً كبيراً من البرجية الذين خشى خطرهم . غير أنه أبى على طائفة منهم تبلغ نحو أربعة آلاف وسبعمئة بالقلعة، وضيق عليهم الخناق وأمر بعدم مغادرتهم الأبراج خشية انضمامهم إلى إخوانهم الذين طردوا من القلعة (٢) .

وأصبح من الواضح إذن أن الترك لم يعمدوا إلى تشريد البرجية رغبة فى حماية عرش الناصر محمد ، ولكن رغبة فى القضاء على معارض خطير بدأ فى الظهور على مسرح السياسة . ومن هنا بدأ اهتمام البرجية يتحول من الدفاع عن السلطان إلى الانتقام من المماليك الترك .

ثم إن هذا الإجراء من جانب كتبنا لم يكن له أثر كبير فى إضعاف نفوذ البرجية بل على العكس أدى إلى تكرار ثوراتهم ، ذلك أن المماليك البرجية الذين طردوا من القلعة لم يرضوا بهذا التشريد ، وخاصة بعد أن أعلنوا للناصر محمد أنهم لم ينضموا إلى جانب الشجاعى ضده بل رغبة فى الانتقام من كتبنا . ووجد هؤلاء البرجية أن إخلاصهم للناصر محمد لم يخدم شيئاً بعد أن استحوذ الترك عليه وجعلوه ألوبة فى أيديهم ، وهو لم يعاوزه وتلك العاشرة من عمره . ولما لم تعد هناك قيمة لتأييدهم للسلطان الناصر محمد أصبحت سياستهم تنحصر أولاً وقبل كل شيء فى المحافظة على كيانهم إزاء الاضطهاد التركى .

وفى ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ (سنة ١٢٩٤م) سحقت الفرصة للبرجية المطرودين لمحاولة العودة إلى مكانهم القديم حين خرجت فرقتهن المقيمة بالكباش واتجه أفرادها إلى الاصطبلات التى تحت القلعة ، واستولوا على ما بها من الخيول ثم دارت الفرقة على خشداشيتها بمناظر الميدان الصالحى ودار الوزارة ، وبعدها اتجهوا جميعاً إلى باب سعادة فأحرقوه . ثم قصبوا إلى سوق السلاح بالقاهرة؛ ومضوا بما أخذوه من السلاح إلى خزانة البنود

(١) هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو سنة ٦٤٠هـ ثم جددها الناصر محمد سنة ٧٢٣هـ وسكنها فيما بعد الأمير صرغتمش والأمير يلبغا العمري الخاصكى من بعده زمن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. وأصبح هؤلاء الأمراء يتناوون سلاطين دولة المماليك الأولى منها - راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) قيام دولة المماليك - ١٧

وأخرجوا من فيها من الممالك ثم توجهوا إلى القلعة لحصارها . ولكن محاولتهم لم تنجح إذ تمكنت حامية القلعة من القبض عليهم ، حيث ضربت رقاب بعضهم ، وقطعت أيدي جماعة أخرى وأرجلهم وصلبت جماعة أخرى منهم على باب زويلة (١) ، واستصدر كتبغا أمراً من السلطان الناصر محمد بتوزيع باقي الثاثرين وعددهم نحو ثلثمائة مملوك على الأمراء إمعاناً في الخط من شأنهم ، إذ كانوا ممالك سلطانية ثم صاروا ممالك أمراء (٢) .

على أن هذه الثورة التي قام بها الممالك البرجية أضافت كتبغا نائب السلطنة من انتقام البرجية الموجودين بالقلعة ، فسارع بطلع السلطان الناصر محمد ونفاه إلى الكرك وأقام نفسه سلطاناً في ٢١ من المحرم من السنة نفسها (٣) ، واتبع هذا ببذل جهوده لكسر شوكة البرجية الذين ما زالوا يشكلون بأعدادهم الكبيرة خطراً داهماً على الدولة ، كما عمل على تقوية جانب الممالك الترك . وتحقيقاً لهذه السياسة شتت كتبغا عدداً كبيراً من البرجية المقيمين بالقلعة ، وأحل مكانهم طائفة من بني جنسه وهي طائفة المغول الأويراتية الذين فروا من بلادهم سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) بعد ولاية غازان محمود الحكم فيها واستدعى السلطان كتبغا أكابرهم ليقيموا بقلعة الجبل وأنعم على مقدمهم طرغاي بإمرة طبلخاناه وأتزل الباقيين بالحسنية . وحرّم كتبغا بهذا الإجراء عدداً كبيراً من البرجية من إقطاعاتهم وتأثر عدد آخر منهم حين قلل من رواتبهم التي أعطاهم هؤلاء الأويراتية (٤) .

غير أن كل هذه الجهود من جانب السلطان لم تؤد كذلك إلى ضعف شأن البرجية سواء الذين في داخل القلعة أو خارجها . بل أدت فعلاً إلى خلق العنصرية الواضحة في صفوف الممالك . وبدأ الممالك البرجية يتنهزون الفرص للانتقام من الترك في شخص السلطان كتبغا . ولكن الحوادث لم تمكنهم من تحقيق ذلك إذ استطاع الأمير لاجين (٥) إثارة عدد كبير من الأمراء الترك على كتبغا بسبب عزله عن الدين أيلك الحوى نائب الشام ، وعمد لاجين بذلك إلى التهديد نفسه للوصول إلى السلطنة . ثم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ - ٨٠٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٨ .

(٣) بيرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ١٨٧ أ ، ١٨٨ أ .

، ابن أبي الفضائل : النج السديد ج ٢ ص ٤١٨ - ٤٢١ .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٥) كان لاجين روميا ومع ذلك كان أبرز شخصية من باقي الأمراء الترك راجع ابن بهادر :

فوح النصر رقم ٢٠ ورقة ١٩١ .

حاول لاجين أو اواخر سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) قتل كتيبغا وهو عائد من الشام فلم يستطع ، ولكنه استطاع الوصول إلى منصب السلطنة في المحرم سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وانضم إليه جميع المماليك الترك وذلك بعد أن فر كتيبغا إلى صرخند (١) .

وباعتلاء لاجين عرش السلطنة سنة ٦٩٦ هـ لم يتغير موقف البرجية من الترك بل تركز انتقامهم منهم في شخص السلطان لاجين بعد أن اختفت شخصية كتيبغا وعادوا ينتظرون الفرصة لتحقيق هدفهم . وبدأت الفرصة سانحة في صفر سنة ٦٩٨ هـ حين انقسم المماليك الترك على السلطان لاجين بسبب مخالفته لرأيهم في تعيين الأمير منكوتمر أحد مماليكه المكروهين في نيابة السلطنة (٢) . وأصبح جانب السلطان لاجين ضعيفاً حين أخذ الأمراء الترك يدبرون المؤامرات ضده وضد الأمير منكوتمر . وخشى الأمير منكوتمر أن ينتهز البرجية الفرصة ويقتلوا السلطان لاجين . ولذا أخذ يعمل على إبعاد الأمير سيف الدين كرجى مقدم المماليك البرجية ، فأوعز إلى السلطان لاجين أن يوليه نيابة بعض القلاع التي فتحها عسكر السلطان ببلاد الأرمن (٣) . غير أن الأمير كرجى تنبه إلى المؤامرة وطلب من السلطان لاجين أن يعفيه فأعفاه . وأسرع كرجى بعد عدته واستطاع البرجية تنفيذ خطتهم حين جلس السلطان في القصر إلى وقت المغرب من ليلة ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ فاتفق كرجى مع صاحب نوبة تلك الليلة وهو نوغاي الكرمانى على أن يدخل المماليك البرجية وأن يمكنهم من الهجوم على السلطان وقتله . والخلاصة أن كرجى بمعاونة نوغاي الكرمانى تمكن من قتل السلطان لاجين حين قام لصلاة العشاء . وتظهر أهمية هذه الحادثة فيما ذكرته المصادر عن نفوذ البرجية وقتذاك إذ أن كرجى جلس في القلعة لحفظها ومعه نحو ألف فارس من المماليك البرجية (٤) .

وربما يتساءل المرء : لماذا لم يقم المماليك البرجية كرجى سلطاناً وقتلوا ؟ والإجابة تأتي من سياق الحوادث التي تلت مقتل السلطان لاجين ، وذلك أن المماليك البرجية لم تكن صفوفهم رتبته بعد ليكون في استطاعتهم إجماع الآراء على واحد منهم . وينهض دليلاً على هذا أنه كان بين صفوف البرجية أمير أقوى من كرجى ، وهو بيبرس الجاشنكير بن عبد الله المنصورى الجركسى الجنس ، وله أنصار كثيرون ، لامن البرجية فحسب ، بل من الترك كذلك ، فضلاً عن أنه تأمر قبل كرجى وذلك منذ أيام أستاذ

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ .

(٣) ابن تيمى بردى : المهمل الصان ج ٣ ورقة ٥١ ب .

(٤) ابن لياس : بذائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

المنصور قلاوون . وزاد نفوذه حين أصبح من كبار الأمراء في عهد السلطان خليل . ولم يقلل من شأن بيبرس الجاشنكير سوى السلطان كتبغا الذى عزله عن الأستادارية جريا على سياسته في تثبيت البرجية . ووقف بيبرس الجاشنكير في جانب الأمراء وأجناد الحلقة والمقدمين وأجمعوا على قتل كرجى لأنه عارضهم في إعادة الناصر محمد وطالب بسلطنة واحد من البرجية وهو طقجى وأن تكون النيابة له (١) . ثم تمكن الأمراء من قتل طقجى كذلك (٢) ، وتخلصوا من صراع طائفي وشيك الوقوع بأن اتفقوا على الاحتفاظ بالسلطنة في بيت قلاوون ، فأرسلوا إلى الكرك في جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) لإحضار الناصر محمد الذى اعتبره الناس السلطان الشرعى للبلاد ، ثم سلطونه وأصبح الأمير سلا ر التركى نائب السلطنة (٣) .

ويبدو واضحا من كل هذه الحوادث أن البرجية أصبحت منذ سنة ٦٩٨ هـ - (١٢٩٨ م) فرقة لا يستهان بها . فضلا عن كثرتهم العددية صار أغلبهم في سلطنة الناصر محمد الثانية من كبار الأمراء (٤) بل أصبح منهم أمراء ألوف وعين البعض الآخر نوابا في سورية ومصر . ومن هؤلاء قراستقر الجركسى المنصورى الذى عاد إلى نيابة الصببية ثم ناب في حلب بعد كتبغا (٥) .

غير أن ازدياد نفوذ البرجية في هذه السنة كان من عوامل ثورة العناصر المملوكية الطامعة في الحكم ، ومن هذه العناصر بقايا فرقة المغول الأويراتية ، إذ نصب هؤلاء المغول كينبا لمباغنة البرجية قبيل لقاء الجيش المملوكى لجيش غازان سنة ٧٠٢ هـ ، ولكن البرجية تنهوا هذه المؤامرة وحاولوا الانتقام من الأويراتية ، ولما أوشك الانقسام أن يدب في جيش الممالك أسرع سلا ر نائب السلطنة وقبض على الأويراتية وشتتهم (٦) . ثم أصبح البرجية عنصرا هاما في الجيش المملوكى بعد أن أسهموا بسهم وافر في صد جيوش غازان التى هاجمت سوريا بين سنتي ٦٩٨ هـ ، ٧٠٢ هـ . وأوضح ابن تغرى بردى صورة من هذه الجهود في وصفه لواقعة شقشب (إحدى قرى دمشق) . سنة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٦٦ .

(٢) Zettersteen تاريخ سلاطين الممالك ص ٥٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : التجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٤ .

(٤) عيون التواريخ ج ٥ قسم ١ ورقة ١٣٢ .

(٥) المسكافى : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٨٤ - ذكر المقرئى في المقن كذلك ج ٣ ورقة ٨٦

أن الأويراتية أرادوا بهذه الفتنة قتل بيبرس وسلا ر لإسكان إعادة كتبغا إلى السلطنة وهنا تظهر ناحية طائفية لعلها كانت أهم أسباب ضعف المنصور التركى أمام المنصور الجركسى .

٧٠٢ هـ وهى الواقعة التى قادهم فيها بيبرس الجاشنكير وذلك فى قوله : « وسلموا نفوسهم إلى الموت ، فلما رأى باقى الأمراء منهم ذلك ألقوا بأنفسهم إلى الموت واقتحموا القتال » (١) على أن هذه الانتصارات التى أحرزها البرجية فى ميادين القتال غيرت من سياستهم إزاء بيت قلاون إذ انقلبوا من متعصبين له إلى طامعين فى السلطنة كلها . وتفصيل هذا أن الأمير بيبرس الجاشنكير متولى أمور الممالك البرجية بعد كرجى تولى منصب استدارية الناصر محمد ، فعهد إلى رفع شأن الممالك البرجية بعد واقعة شقحب . وبلغ نفوذ البرجية درجة جعلت الناس يترددون إليهم فى قضاء حاجاتهم حتى إن المقرئى أوضح لنا مدى نفوذ البرجية فى سلطنة الناصر محمد الثانية فى قوله : « وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة » (٢) وترددت الناس إليهم فى الأشغال وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير ، وأمر منهم عدداً وصار فى قبائله الأمير سلاز ومعه الصالحية والمنصورية ( الترك ) إلا أن البرجية أكثر وأقوى وشروها جميعاً إلى أخذ الإقطاعات » (٣) .

وهكذا اشتدت المنافسة بين البرجية وبين الترك وظهر هذا التنافس واضحاً حين عمد كل من الفريقين إلى زيادة نصيبه من الإقطاعات ومن مناصب الإمارة المملوكية رغبة فى أن ترجع كفة فريقه على الفريق الآخر ، وبذا يسهل عليهم خلع السلطان . وضائق صدر الناصر محمد — الذى ناهز العشرين من عمره — من هذا الصراع بين طائفتى الممالك ، هذا الصراع الذى أوشك أن يضعه بين شقى الرعى ، فهو لم يستطع التصرف فى شئون الدولة . كما أنه لم يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكول لقلة المرتب له فى وقت بلغت إقطاعات الأمراء شيئاً كثيراً حتى يقال إن إقطاعات سلاز فقط بلغت نحو أربعين طبلخانة وبلغ دخله فى كل يوم مائة ألف درهم (٤) .

وفى رجب سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٧ م) حاول الناصر محمد أن يتخلص من زعيمى الطائفتين بالاتفاق سراً مع الأمير بكتور الجوكندار على قتلها ، غير أن بكتور نفسه كشف المؤامرة للأميرين ، بل حلف لهما على أن يكون معهما . فتحالف بيبرس وسلاز على العمل بدورهما ضد السلطان . ولما لم يكن مع السلطان سوى عدد قليل من الممالك

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الممايات جمع حاية وهى مكس يفرضه الأمير أو السلطان أحياناً على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرزاق ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر — راجع ، الأسدى : التيسير والاعتبار والاختيار ورقة ٥٢ - ٥٣ ، Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

(٤) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

السلطانية الترك الذين أعدهم لحمايته ، فإنه لم ينقذه من هذا الموقف سوى العامة الذين أسرعوا لتأييده ، فضلاً عن أن الناصر محمد عمد إلى الحيلة وتظاهر بجهله بكل ما يدور ويبحث يسأل الثائرين عن غرضهم ويعلم استعداده التام للتنازل عن السلطنة . وكأنما شعر الأميران بخرج موقفهما مع المماليك السلطانية والعامة ، فأرسلوا فرقة إلى العامة لتفريقهم ، ولكن هذه الفرقة فشلت لأن العامة ثبتوا في أماكنهم وظلوا يصرخون مؤيدين الناصر محمد بقولهم : « يا ناصر يامنصور ! الله يخون من يخون ابن قلاوون (١) » . ولما لم تفلح القوة في قمعهم اضطر الأميران إلى التوجه إلى الناصر محمد معلنين طاعتها سائلين أن يركب في أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن قلوب العامة ، فأجابها إلى ذلك . وهكذا أخذت الثورة وفشلت محاولة السلطان للتخلص من الأميرين اللذين أذعنا له وقبلا يديه فأفيض عليهما الخلع (٢) .

ولكن أطماع المماليك البرجية لم تقف عند حد ، ودفعهم تعصبهم لعنصرهم إلى العودة في شبان سنة ٧٠٨ هـ إلى منافسة المماليك الترك في الوصول إلى أعلى المناصب وفي اقتناء أحسن الإقطاعات . ولم يكن في وسع السلطان الناصر محمد أن يقاوم لصغر سنه ، فأثر السلامة على عادته ، ولكنه بدا أكثر دهاءاً من كل من زعيمى الفرقتين إذ أشجعهما بعزمه على الخروج للحج مع أولاده وبيته ، وسرعان ما وافقاه على هذا الأمر ليتمكن كل منهما من تحقيق مأربه (٣) . ورحب البرجية بهذا السفر بل شرعوا في تجهيزه . وكتب إلى دمشق والكرك برمى الإقامات وأحضر الأمراء تقادهم من الخليل والجمال حسب عاداتهم وسافر السلطان للحج في العاشر من رمضان سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) .

وبلغ من استهتار الأميرين بيبرس وسلار بالناصر محمد أنهم حين اشتركا في وداعه لم يترجلاه ؛ ولهذا لم يكد الناصر محمد يصل إلى الكرك حتى كشف النقاب عن موقف الأميرين فكانتهما يدعوهما إلى طاعته ، وأدى هذا الكتاب إلى عودة اتفاق بيبرس وسلار لمواجهة الموقف ، وردا على الناصر محمد بخطاب جاء فيه « ما علمنا ماعولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهلها وتشيعك نائبها . . . فخل عنك شغل الصبي وقم واحضر إلينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفع الندم ... » (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٣

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٠

غير أن الناصر محمد استغل فرصة كراهية الناس للأميرين وأظهرهما بمظهر متعصبين العرش من سلطان زهد في السلطنة ، فأرسل مع البريد جميع شارات السلطنة وأعلن تنازله عنها في كتاب حملة البريد إلى القاهرة في شوال سنة ٧٠٨ هـ .

وهكذا جعل الناصر محمد السلطنة من جديد ميداناً للتنافس بين البرجية والترك ، غير أنه لما كانت فرقة المماليك البرجية وقتذاك أقوى نفوذاً وأكثر عدداً من المماليك الترك فإن تنازل الناصر محمد حين تلى على الأمراء لم يتقدم سلاسل لترشيح نفسه للسلطنة ، لقلة عدد أنصاره من الترك (١) ، ولإجماع الأمراء البرجية على اختيار الأمير بيبرس الجاشنكير سلطاناً (٢) ولم يتأخر الأمراء الترك عن مبايعة بيبرس الجاشنكير لضعف نفوذهم ولأنهم خشوا استعانة أحد الأميرين المتنازعين بالعرب ، فأنبت القضاء كتاب الناصر محمد في ١٢ من شوال سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) وسلطنوا بيبرس الجاشنكير (٣) .

وبرغم أن هذه هي أول مرة نجح فيها أحد الجراكسة في اعتلاء السلطنة المملوكية ، وبرغم أنهم سيطروا على عدد كبير من الوظائف في مصر ، فإن ناحية ضعف بدت في جانبهم ولعلها هي التي جعلت بيبرس الجاشنكير يتردد كثيراً قبل الموافقة على قبول السلطنة . أما سبب هذا الضعف فهو أن أكثر نواب سوريا كانوا من الترك (٤) ، الذين لاشك في إخلاصهم للناصر محمد في مثل هذه الظروف التي يقتصب فيها العرش واحد من الجراكسة . ولم يكن هناك في سوريا من أعلن تأييده لبيبرس الجاشنكير سوى أقوش الأفرم الجركسي ، نائب دمشق ، لما بينه وبين الجاشنكير من صلة القرابة (٥) ، فأصرع الأفرم لاستقبال حاملي أنباء مبايعة بيبرس الجاشنكير خارج المدينة بمظاهرة الفرح ، وأمر فزينت دمشق زينة هائلة .

وفي القاهرة بدأ البرجية محاولتهم لتأييد سلطانهم بأن نصحووا بيبرس بالقبض على سلاسل خشية أن يثير الترك عليهم ، غير أن بيبرس لم يكن مستعداً للقيام بهذا العمل قبل أن يتخلص من الناصر محمد نفسه ، كما أنه خشى اضطراب الأمور إذا انصرف إلى

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٧ ، ٢٥ .

(٢) ابن تقي بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢٧ - ذكر السقلاقي أن بيبرس الجاشنكير اشترك في الانتقام من قتل السلطان خليل ، ثم إنه تطلع للسلطنة منذ فتنة الشجاعى وأنه تبس عليه بسببها (راجع الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٣) .

(٣) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ص ١٣٣ .

(٤) راجع السقلاقي : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٤٥ .

(٥) ابن تقي بردى : المنهل الصافي ورقة ١١٣٧ .

النضال مع الترك ؛ ولهذا حرص وقتذاك على إظهار مودته لسلار ، وعمد إلى مشاورته وغيره من كبار الأمراء في أمر الناصر محمد حتى اتفق الجميع على إرسال جيش لقتاله ومن ناحية أخرى أراد بيبرس أن يكسب حكمه صفة شرعية فحصل من الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي على عهد جديد (١) . وعلى الرغم من أن هذا العهد أعلن في المساجد ، ورغم أن بيبرس الجاشنكير حرص على كسب العامة منذ سنة ٧٠٠ هـ بالزام النصارى بلبس العمامة الزرق ، واليهود بلبس العمامة الصفراء وعدم استخدامهم في الدواوين ، وفضلاً عن إلغاء عيد الشهيد سنة ٧٠٢ هـ ، على الرغم من هذا كله فلأن بيبرس لم يكسب العامة الذين تعالت صيحاتهم مرددين « مانريد المظفر ! » بل وقعت في القاهرة اضطرابات عنيفة ، حوكم بسببها عدد كبير من العامة (٢) .

وكأنما شعر باقي نواب سوريا وهم من الترك بالخطر يتهددهم نتيجة اعتلاء واحد من البرجية الجراكسة السلطنة المملوكية وسعيه لتعيين خشد اشيتة نواباً في سوريا (٣) فرفض بعضهم أن يخلف للسلطان الجديد ، ومن هؤلاء الأمير بيبرس العلائي ، والأمير بها در الحاج الذي ينسب إليه أنه قال « إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا ، أهلكونا وراحت أرواحنا معهم فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا » (٤) .

ولذلك يوفق الجراكسة في سوريا بعد أن تكتل ضدهم نوابها وأمرؤها الترك ، وبعد أن فشلت دعايات أقوش الأفرم في تثبيت السلطان بيبرس الجاشنكير ، فإنه لم يصادفهم التوفيق في مصر كذلك نقص ماء النيل ذلك العام ، فزاد كره الناس للسلطان الجديد ، وزاد الطين بلة أن انتشر الفساد والسلب والنهب حين أمر بيبرس الجاشنكير بماليكه بمهاجمة البيوت للبحث عن الخمر وعقاب أصحابها (٥) .

ولإزاء كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بهذه المحاولة لسلطنة واحد من البرجية رأى الناصر محمد الفرصة سانحة لاسترجاع ملكه ، وذلك حين أرسل بيبرس الجاشنكير إلى الناصر في رجب سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨ م) يطلب منه المال الذي أخذه معه إلى الكرك في صورة تحمل التهديد ، مما حدا بالناصر محمد إلى ضرب رسول بيبرس وإعادته على أفبج وجه . ثم أخذ الناصر يعد العدة للتقدم إلى دمشق . وحوالي ذلك الوقت كاتب سلار الناصر محمد باستعداده لمؤازرته ، بل إن سلار وضع للناصر محمد الخطة بأن يتوجه إلى

(١) ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) ابن تقي بردي : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٦٨ أ .

(٤) ابن تقي بردي : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ أ .

(٥) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ .



دمشق ليحصل على تأييد أمراء سوريا الترك حتى إذا تم له الأمر وعاد إلى مصر يحتفظ سلار له بالسلطنة في وقت ضعف فيه مركز بيبرس (١) .

ونجحت الخطوة الأولى من خطة الترك إذ لم يكبد الناصر محمد يزحف نحو دمشق حتى فرمها الأفرم ، وهو أهم شخصية جركسية اعتمد عليها بيبرس في سورية . وسرعان ما أعلن الناس في سورية تمسكهم بأحقية بيت قلاون في السلطنة ، واستقبل أهل دمشق الناصر محمد بالشجوع والمباخر واللعب بالسيوف (٢) .

ثم اجتمعت عدة عوامل ساعدت على نجاح باقى الخطة لإزالة سلطنة بيبرس الجركسى . وفي مقدمة هذه العوامل أنه لم تعد هناك قيمة لكتابات بيبرس إلى نواب سورية لتأييده والوقوف مع آقوش الأفرم نائب دمشق؛ لأن آقوش لم تمكنه الحوادث من مقاومة الناصر محمد والمماليك الترك طويلاً ، وثانيها ضعف النفوذ الجركسى في سوريا تماماً بعودة الأفرم بعد اختفائه ، وإذعانه بالطاعة للناصر محمد الذى وعده بتأمينه (٣) ، ومن هذه العوامل كذلك مكاتبة أمراء سوريا الترك إلى أصحابهم من أمراء مصر وتشجيعهم على أن يكونوا معهم لإعادة سلطنة الناصر محمد (٤) . ونتيجة هذه الكتابات تسلل المماليك الترك من مصر إلى سورية لينضموا إلى إخوانهم الترك الذين تجمعوا للمعاونة الناصر محمد . ولم يبق بالقاهرة سوى البرجية الذين اجتمعوا وقرروا أن سبب هذه النكبة هى سلار وأنه يلزم القبض عليه . وشعر بيبرس بعدم جدوى القبض على سلار بعد فرار أكثر المماليك إلى سورية . ولهذا اتفق مع البرجية على الزحف إلى سورية لقتال الناصر محمد (٥) . غير أن بيبرس حين علم بانضمام برلغى آقوش نائب الكرك إلى الناصر محمد أسقط في يده ، وأيقن زوال ملكه ، إذ أن برلغى هذا زوج ابنة الجاشنكير وأحد أعيان دولته ، ومن أنعم عليهم بنيف وأربعين ألف ديناراً مصرية ، وفشلت كذلك محاولات بيبرس في القضاء على المقاومة الشعبية لأن العامة لم يعترفوا بسلطنة الجراكسة ؛ وانتهى أمر بيبرس باغتصاب جميع أموال الخزائن السلطانية ونزوله عن السلطنة بإشارة الأمير بيبرس الدوادر المورخ ، والأمير بهادر آص ، فكتب بذلك إلى الناصر محمد (٦) :

---

(١) الميى : عقد الجمان ج ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ١٣٥ .

(٣) الكتبى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٢٧٥ .

(٤) الميى : عقد الجمان ج ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٥٤ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦١ .

(٦) بيبرس الداودار : التحفة المملوكية ورقة ١٠٠ .

ولم تكن حماسة الناس في مصر لبيت قلاوون أقل من حماسة أهل سورية ؛ برغم قلة الترك آنذاك في مصر . وسرعان ما اتجه العامة نحو باب الإسطبل من القلعة ، وحين خرج بيبرس من القلعة رماه بعضهم بالحجارة ، فحاول مماليكه وضع السيف فيهم ، ولكنه أراد اتقاء غضبتهم بأن رمى إليهم بالمال ليشغلوا بجمعه ، غير أن هذا لم يمنع العامة من العدو خلفه وسبه وهو في طريقة إلى الحرب . وبذلك البرجية جهوداً كبيرة لإنقاذه حتى شهروا سيوفهم في وجوه العامة ، ومكنوا بيبرس من الاختفاء ، وبقي سلالاً بمفرده يدبر أمر الدولة حتى حضر الناصر محمد ، وخطب له على منابر القاهرة يوم الجمعة ١٩ من رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨م) (١) .

ونج عن هذه المحاولة من جانب الجراكسة لاغتصاب السلطنة تغير واضح في سياسة الناصر محمد في سلطنته الثالثة إزاء فرقة البرجية إذ زادت كراهيته للجراكسة وعمل على الانتقام منهم ، فخالف اتجاه أبيه وأخيه الأشرف خليل في شراء المماليك الجراكسة حين أكثر من شراء المماليك الترك (٢) . وأوضح المقرئى انصراف الناصر محمد إلى شراء المماليك الترك وتشجيع التجار على جلبهم في قوله: « وبذل الرغائب في حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشترى منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد . » (٣) . وبلغ ما اشتراه الناصر محمد من المماليك الترك اثني عشر ألف مملوك . ولم يكشف الناصر محمد باقتناء هذا العدد الضخم من الترك ليتمكن من مواجهة أعدائه الجراكسة ، بل دفعه خوفه من البرجية إلى ترقية مماليكه الجدد من الترك بتمتة السرعة . ولم يراع عادة أبيه وغيره من السلاطين

(١) ويتضح لنا كراهية العامة لحكم بيبرس الجاشنكي من الأبيات التي نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشار مساحي ومنها :

ولي المنظر لما فاته الظفر  
وقد طوى الله من بين الوري فتنا  
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه  
لما تولى تولى الخير عن أم  
وناصر الحق وافي وهو منتصر  
كادت على عصبة الإسلام تنتشر  
أثواب عارية في طولها قصر  
لم يحموا أمره فيها ولا شكروا

راجع السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦

(٢) راجع : Poliak : Le Caractère Colonial De l'Etat Mamluk. p. 231

(٣) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ ذكر المقرئى أنه جلبهم من بلاد أوزبك وتوريز وبلاد الروم وبغداد وغالب مماليك هذه البلاد هم من الترك .

السابقين في تنقل المملوك في أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن ، بل اقضى رأيهُ أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير والترقية السريعة تحقيقاً لهدفه في أسرع وقت (١) .

ولمعانا في إضعاف قوة الجراكسة عمد الناصر محمد إلى تعقب أنصار بيبرس الجاشنكير من الجراكسة ، فوزع عدداً كبيراً منهم على أمراءه الترك والبالغ في قتل الكثيرين منهم حتى فر من وجهه قراسنقر وأقوش الأفرم والزردكاش ، وهم من كبار الأمراء الجراكسة . ووصل أولئك الثلاثة إلى خربندا لإلخا التتار مستجيرين ، فرحب بهم وأقطع قراسنقر مرانة ، والأفرم همدان ، والزردكاش نهاوند . ومع هذا تعقبهم الناصر محمد « بالفداوية » كما رصد لهم عيوناً تطلعه بأخبارهم (٢) .

بيد أن هذه السياسة لم تؤد إلى شيء سوى دفع بعض زعماء الجراكسة إلى المؤامرة سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٩ م) . ففي تلك السنة قام الأمير بتخاض الجركسى بتحريض مماليك بيبرس الجاشنكير على قتل أمراءهم الترك (٣) . ولم يكتف السلطان الناصر محمد بالقضاء على هذه المؤامرة بل تابع موجات اضطهاده للجراكسة ، فأخذ في عرض الممالك البرجية ووفر جوامك عدداً منهم وقطع رواتبهم ، وأعطى الإقطاعات والرواتب التي توفرت نتيجة حرمان هؤلاء الممالك البرجية منها - وخاصة في أراضي البليزة - إلى مماليكه الترك (٤) . ثم إنه في سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) أعاد الناصر محمد عرض الممالك البرجية ، وأخرج مائة وثمانين من كبارهم إلى العمل في سورية ، أما من خشي خطرهم فإنه أصدر أمره بقتلهم غرقاً في النيل (٥) .

ومنذ انتهاء عهد الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) تصف المصادر المعاصرة فرقة الممالك البرجية وصفاً عنصرياً فتطلق عليها كلمة الجراكسة . ولعل ذلك يرجع إلى تكتل الجراكسة الذين تكونت منهم هذه الفرقة ووقوفهم ضد الترك عدة مرات وضحّت فيها العنصرية والعصبية .

غير أننا لم نجد أثراً لمحاولات جركسية ضد الترك في جهود السلاطين كجك (٥٧٤٢) وأحمد (٧٤٢ - ٧٤٣ هـ) ، وإسماعيل (٧٤٣ - ٧٤٦) أبناء الناصر محمد . ولعل

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة ، المسقاني : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٥٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٥٤ - ٥٥٦ . (تقع بلدة المرافة بإقليم أذربيجان ،

أما همدان فتسمى نهاوند) . انظر المقرئى ج ١ الأزهار من الروض المطار ورقة ١٥٣ .

(٣) البني : عقد الجمان ج ٢٢ قم ١ ورقة ٢٤٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ .

ذلك بسبب زيادة عدد المماليك الترك في سلطنة الناصر محمد الثالثة زيادة ملحوظة وازدياد النفوذ التركي ، وما تبع هذا من الاضطهادات المستمرة التي شنها الناصر محمد على الجراكسة . أما منذ سنة ٧٤٦ هـ حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى فإن الحوادث المختلفة أثبتت أن الجراكسة مهدوا لإعادة المحاولة بزيادة عددهم في القلعة وخارجها ؛ مما كان سبباً للمخاوف التي أحس بها المماليك الترك سادة الدولة المملوكية الأولى ؛ والذين أعلنوا للناس أنه عندما تنمو قوة الجراكسة فإنهم « سيهلكون العباد والبلاد » (١) .

وأولى هذه المحاولات الجركسية في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ) (١٣٤٥ - ١٣٤٦ م) إذ ثار الجراكسة بسبب ولع السلطان بجمع الأموال وادخارها والتضييق عليهم في النفقات ، وحرص على هذه الثورة الأمير غرلو الجركسى شاد الدواوين (٢) . وبدأ غرلو بإغراء الترك على خلع السلطان شعبان بأن كتب إلى بلغا اليحياوى نائب دمشق بالخروج عن طاعة السلطان حتى إذا خرج السلطان لقتاله يمكنه أن يثير عليه عسكره ويخلعه ، وتحققت المؤامرة إذ ما كاد عسكر السلطان يصل إلى منزلة السعيدية حتى أعلنوا العصيان وعادوا مطالبين السلطان بنفقاتهم ، ولم تفلح جهود السلطان شعبان في مقاومتهم ، فقبضوا عليه ، وبعد أن خلعوه اتفقوا على تولية سلطان صغير السن هو حاجى بن الناصر محمد ، ولقبوه بالمظفر (٣) .

والنتيجة الطبيعية لهذه المحاولة هي أنها مهدت لظهور النفوذ الجركسى في عهد السلطان حاجى بدليل أن الأمير غرلو أصبح نائب السلطنة ؛ واستحوذ على السلطان الصغير ؛ وزاد نفوذه ، وجلب عدداً كبيراً من المماليك الجركسية ؛ ورفع شأنهم على المماليك الترك . وذكر المقرئى أن الأمير غرلو « أظهرهم في الدولة حتى كبرت عماهم وكلوتاتهم » (٤) . ثم أراد غرلو أن يقوم بنفس الدور الذى قام به بيبرس الجاشنكير . وأثارت أعماله حقن المماليك الترك ؛ وولدت في نفوسهم الغيرة من الجركس . ومن ثم ظهر رد الفعل في ازدياد كراهية الترك للأمير غرلو . وحين حرص الأمير غرلو السلطان حاجى على قتل عدد كبير من المماليك الترك اتخذوا هذه الحادثة ذريعة ليرموه عند السلطان حاجى بأنه يعمل على هدم سلطنة بيت قلاون ، فأخذ السلطان على غرة بأن

(١) السقلاوى : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠٠ .

Ayalon : The Circassians in The Mam. Kingdom p. 137.

(٢) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) ابن تفرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٥٠ أ .

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

قدم له ولاية غزة ، ثم ذبحه غيلة ، وقبل تعيين الأمير ارقطاي التركى فى منصب نيابة السلطنة (١) .

وبعد أن تخلص الترك من أخلص مستشارى السلطان من الجراكسة ، انقلبوا عليه رغبة فى التخلص منه لاستمرار تأثيره بالجراكسة ، وميله لإيهم . فحاولوا التضييق عليه ، وعابوا عليه انصرافه عن أمور الدولة ، وإقباله على اللهو بالحمام ، والشغف بالنساء ، وإحضار الأوباش للعب المصارعة بين يديه (٢) ، مما جعله يخشى على نفسه من المماليك الترك كذلك ، ولما عزم على كبح جماحهم واسترجاع حقوقه قبض على عدد كبير منهم ، ثم نفي عدداً آخر إلى سورية والوجه البحرى والصعيد ولهذا انبرى نائب السلطنة الأمير ارقطاي التركى للدفاع عن إخوانه الترك ، فأتجه ومعه أكثر الأمراء الخاصكية إلى قبة النصر معلناً الثورة على السلطان . ولم يكن فى وسع السلطان حاجى سوى أن يرتضى فى أحضان الجراكسة فركب فى أربعمائة فارس منهم لمحاربة المماليك الترك وسار بهم إلى قبة النصر (٣) .

غير أنه لم يكن بين هؤلاء الجراكسة من يخلص له بعد أن قتل كبيرهم الأمير غرلو ، ولذلك تفاذلو عنه وسهلوا للترك القبض عليه وقتله قبل الدخول فى المعركة وذلك فى رمضان سنة ٧٤٨ هـ - سنة ١٣٤٧ م (٤) .

والظاهر أن مقتل السلطان حاجى على يد المماليك الترك على هذا النحو السهل شجع الجراكسة على القيام بمحاولتهم الجديدة فى الميدان السياسى فى نفس السنة ، وذلك حين ناصروا أمير حسين بن الناصر محمد وأرادوه سلطاناً على البلاد بعد أخيه حاجى ، غير أن الأمراء الكبار من الترك عارضوهم مفضلين عليه أخاه أمير حسن الذى بلغ الثانية عشرة من عمره وقتذاك ، ليكون آلة سهلة فى أيديهم . وبعد أن تم لهم ما أرادوا وسلطوا حسناً ولقبوه بالناصر بدأوا ينتقمون من أتباع أمير حسين من المماليك الجراكسة ، فابتزوا من سباه وبطانته وجواريه كل ما لديهم من المال ليودعوه خزانة سلطانهم الخاوية ، كما قبض السلطان على ستة منهم وأمر بهم ففرضوا اتجاه الإيوان ضرباً . ورحاً ، ثم حبسوا بخرانة شمالك . وعاد السلطان حسن يخشى انتقام المماليك الجراكسة

---

(١) ابن تترى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٥ ب .

Muir: The Mamluk Dynasty, p. 92.

(٢) الشوكانى : البدر الطالع ج ١ ص ١٨٧ .

(٣) البغوى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ١ ورقة ٨٢ .

(٤) ابن تترى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٦ ب .

فنكل بعدد كبير منهم ، اشتركوا في مؤامرة لخلعه في نفس السنة ، ووزع عدداً على الأمراء ، ونفى الباقيين (١) .

ومع أن الناصر حسن عمل تحت ضغط الأمراء الترك على إضعاف شأن الجراكسة فإن سوء الأحوال الاقتصادية في الدولة منذ سنة ٧٤٨ هـ والإسراف في القصر ، وما نتج عن ذلك من الارتباك المالى دفعت الناصر حسن وكبار أمراءه من الترك إلى محاولة علاجها بخفض مصاريف القصر والممالك وبيع الممالك الجراكسة أو طردهم (٢) . ولاشك أن الكوارث التي لحقت الجراكسة نتيجة هذه الأمور أدت إلى ضعف شأنهم ، وبالتالي إلى استمرار سيطرة العنصر التركي على الوظائف الرئيسية في الدولة . غير أن ثمة ملاحظة توجب الالتفات وهي أنه رغم ازدياد نفوذ الممالك الترك في عصر الناصر حسن ، فإنهم لم يحاولوا الاستفادة من هذا النفوذ في تدعيم فرقتهم أو فيما يعود عليها من نفع ، بل انقسم الأمراء الترك على أنفسهم بسبب تنافسهم على الاستئثار بالسلطة حتى صار الواحد منهم يعقب الآخر في السيطرة على البلاد ، وجعل السلاطين ألوية في أيديهم يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا . ولعل أبرز مثل على هذا مقام به الأمراء من خلج السلطان الناصر حسن في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) وسلطنة أخيه صالح ، الذي لم يستطع التصرف في الأمور رغم أنه جاوز الرابعة والعشرين . ثم إنه حين شعر الأمراء بميل السلطان صالح للأمير طاز ، خلعوا السلطان صالح وأعادوا السلطان الناصر حسن إلى السلطنة في شوال سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) (٣) .

ولاشك أن هذا الانقسام بين الأمراء الترك وما تبعه من ازدياد التنافس بينهم صار عاملاً من عوامل ضعف الدولة المملوكية الأولى وسقوطها بالتالي ؛ إذ فضلاً عن إضعاف شخصيات السلاطين أو تولية صغارهم ممن لا يحسنون التصرف ، فإن مقاليد الأمور — حين أصبحت بيد الأمراء الترك نتيجة هذه الأمور — عاوت على ازدياد ثرائهم لدرجة مكنتهم من شراء أعداد كبيرة من الممالك أملاً في زيادة نفوذهم وإمكان اغتصاب السلطنة ؛ وأبرز دليل على هذا ما حدث حين ترك الناصر حسن مقاليد السلطنة إلى الأمير شيوخن ، فاشترى عددًا كبيراً من الممالك ، وبعد أن قتل انقرد الأمير

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٧٤٧ ، ٧٥١ .

(٢) نفس المرجع الجزء ص ٦٦٥ - ٦٦٨ - ٦٦٩ J. A. O. S. P. P. 13<sup>i</sup>. f. f. بين السقلاقي الطريقة التي سعى بها غرلوق إلى الإثراء سريعاً ، وذلك باستحداث ديوان البذل في سلطنة شعبان بن الناصر محمد وهوديان تولى تحصيل ما يفرض على من يأخذون انقطاعات أو وظائف راجع الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٩٠ .

(٣) راجع سرور : دولة بني قلاوون ص ٥٩ - ٦٠ .

صرغتمش الناصرى بتصريف شئون الدولة ، وضم إليه ممالك شيخون ، وأسكنهم مع ممالكه في مناظر الكيش . وما لبث هو الآخر أن استبد بالسلطة بعد أن أصبح نائب السلطنة وطعم في الاستقلال بالسلطنة . وحين أدرك السلطان حسن هذا الأمر اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، وقبضوا عليه في رمضان سنة ٧٥٩ هـ . وأثار هذا العمل غضب ممالكه ، فاشتبكوا مع الممالك السلطانية في معركة دارت فيها الدائرة على أتباع صرغتمش ، وخلا الجو مؤقتاً للناصر حسن .

والواقع أن اتجاه كبار الأمراء الترك إلى التسابق في اقتناء الممالك فتح الباب أمام تدفق العناصر المملوكية المختلفة بما فيهم الجراكسة ، ومعنى هذا أن اقتناء كبار الأمراء الترك للممالك وقتذاك لم يصبح على أساس عنصري ، بل لأنهم فتحوا أبوابهم لتجار الممالك كما فتحوها لمتخلف العناصر من الوافدية الذين وجدوا في القاهرة الأمل المنشود . ثم إن نائب السلطنة في القاهرة صار له نصيب الأسد من أعداد الممالك وذلك بسبب كثرة أمواله ، وتمكنه من شراء أعداد كثيرة ، فضلاً عما يؤول إليه من ممالك النائب السابق . ومن الأمراء الترك الذين صار لهم النفوذ بعد صرغتمش وورث ممالكه ، الأمير يلغا الخاصكى العمرى الناصرى (١) ، أقره السلطان حسن أمير مجلس في شوال سنة ٧٥٩ هـ عقب القبض على صرغتمش ، فورث أمواله وممالكه ، ثم اشترى عدداً كبيراً من الممالك من ماله الخاص ، بلغ عددهم نحو أربعة آلاف مملوك وتابع يلغا العمرى تعليمهم العلوم الدينية والحربية في مناظر الكيش التي أقام بها (٢) . كما أخذ في ترقيةهم والإنعام عليهم (٣) ، حتى أصبحت مناظر الكيش تنافس القلعة في السيادة . وعاد السلطان حسن يخشى على نفسه من هذا العدد الكبير من ممالك يلغا العمرى فضلاً عن فقدانه الثقة في الممالك السلطانية . ولذلك اتجه إلى سياسة جديدة أساسها الاعتماد على أولاد الناس ، فأمر عدداً كبيراً منهم وقدمهم على الممالك لا رغبة فيهم ولكن على قوله « مصلحة لى ، وللرعية ، وللبلاذ ، فأما مصلحتى فلأنهم لا يخرجون عن طاعى ، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أفاربهم وحواشبهم عن ذلك خوفاً على أملاكهم وأرزاقهم بخلاف الممالك فلأنهم لا رأسمال لهم . في مملكة من الممالك ، وأما للرعية فإن عندهم شيع نفس وعدم طمع ، وأيضا خوفاً متى لا يظلمون أحداً ، وللبلاذ فلا شك فلأنهم أعرف بالأحكام والسياسة والأخذ بخواطير الرعية من الممالك . » (٤) .

(١) - من جنس يلغا العمرى راجع اليفداى : عيون أخبار الأعيان (شمسية) ورقة ٤٨٠ .

(٢) - Iorga : Notes & Extraits TII P 532;

(٣) - المستقلان : الدور الكامنة ج ٤ ص ٤٣٨ .

(٤) - ابن تغرى بردى : المنهل الصائى ج ٢ ورقة ٣٥ أ ، ب - أولاد الناس هم أبناء الأمراء الذين ولدوا في مصر أى لم يشتروا رقيقاً .

ووجدت طوائف المماليك في هذا التصريح خطراً داهماً على مركزهم ، وتزعّم يلغا العمرى الثورة على هذه السياسة التي اتجهت إلى الاستغناء عن جميع المماليك . وبدأ يلغا ثورته بالاعتراض على أعمال السلطان حسن فأُنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وسماحه للطواشية بالتدخل في أمور الدولة . وعظم ذلك على السلطان الذي أخذ يتحين الفرص للتخلص منه . غير أن يلغا علم بنوايا السلطان نحوه فتصدى له في سرحة الصيد ، واشتبك معه في معركة صغيرة ، هزم فيها السلطان ، وهرب إلى القلعة ، ثم خرج المماليك السلطانية لقتل يلغا ، فانهزموا على يديه ، وتقدم يلغا إلى القلعة وقتل السلطان حسن في جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) وأقام ابن أخيه محمد بن حاجى سلطاناً وهو في الرابعة عشرة من عمره (١) ، غير أنه لم يكن من المنتظر أن يستمر السلطان الجديد طويلاً في السلطنة ، ولم يلبث أن ادعى عليه يلغا أنه يدخل بين نساء الأمراء ، وأنه باع في زينيل كمكاً وأخذ ثمنه على سبيل المداعة ، وأنه يعمل مكاري للجواري ، ويفسق بالحرم ويترك الصلاة ويجلس على كرسي الملك جنباً (٢) . وبهذا تمكن الأمير يلغا العمرى من خلع السلطان محمد بن حاجى في ١٥ من شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) وسلطن شعبان بن الناصر حسن وعمره آثنت نحو العشر سنوات . وصار يلغا أتابكه وأصبح صاحب الأمر والنهي داخل القلعة وخارجها ، ولم يكن للسلطان شعبان سوى الاسم .

وبالغ الأمير يلغا العمرى في الإحسان إلى مماليكه الذين عرفوا باليلغاوية ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، وأصبح موكبه معهم من أعظم المواكب ، كما صار عدد كبير من مماليكه نواباً في البلاد ومقدمى ألوف . والخلاصة أن اليلغاوية سيطروا على عدد كبير من الوظائف وبلغ نفوذ يلغا درجة أصبح معها السلطان شعبان [ هو الآخر يخشى على نفسه منهم ولا سبياً بعد أن أثرى يلغا ثراء فاحشاً حين استولى على أموال التنصاري والرهبان وأخذ ما في الأديرة من أموال بعد رحيل القبارصة عن الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) (٣) .

ولم يتخذ السلطنة المملوكية الأولى من سطوة يلغا العمرى سوى انقسام اليلغاوية أواخر سنة ٧٦٧ هـ بسبب سوء سياسة يلغا نفسه ، وذلك أنه قتل عدداً كبيراً منهم ، كما تنوع في تعذيبهم على أدنى جرم ، فأضمرؤا له سوء ولم يتردد السلطان شعبان في الانفاق

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٤٨ أ .

(٣) راجع التويرى : الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٦ ، ج ٤ ص ٤٣٨ .



مع اليلغاوية الكارهين له (١) ، فأُنزل من القلعة أمير آتوك بن حسين أخى السلطان شعبان ولقبه بالملك المنصور وذلك بمعسكره بجزيرة أروى (٢) . تجاه بولاق على حين نزل السلطان شعبان بماليكه ومن انضم إليه من اليلغاوية في الجانب الغربى من النيل . وبدأ صراع بين الطرفين ظهر فيه تقدم يليغا العمرى في فنون القتال ، إذ استخدم مكاحل النقط لأول مرة ضد أتباع السلطان شعبان الذين قاتلوه بالسهم (٣) . ولكن رغم التقدم الحربى من جانب يليغا فإنه لم يوفق ؛ لأن مكاحل النقط لم تكن بعيدة المدى وانتهى أمره بالتسليم بعد أن أصاب السلطان عدداً كبيراً من أتباعه ؛ ثم أسرع السلطان وأمر بقتل يليغا (٤) .

غير أن قتل يليغا العمرى في ١٢ من ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ لم يمكن السلطان شعبان من السيطرة على شئون الحكم ، لوقوعه تحت تأثير أربعة من الممالك اليلغاوية الذين عاونوه على يليغا وهم ، طقيش النظامى واقبغا الأحمدى وقجماس الطازى وأسندمر الناصرى . غير أن أسندمر الناصرى لم يلبث أن انقلب على زملائه وسجنهم بالإسكندرية ووجد السلطان شعبان نفسه مضطراً لأن يخلع على أسندمر بالاتابكية وجعل إقامته بالكيش مكان يليغا العمرى . وأصبح أسندمر منذئذ مالكاً لم يبق من اليلغاوية فضلاً عن سيطرته على أجناد البلخيش بحكم استقراره في منصب الأتابكية بالقلعة — وما لبث أسندمر أن انقلب على السلطان شعبان في المحرم سنة ٧٦٩ هـ (سنة ١٣٦٨ م) وقاد ألفاً وخمسمائة من اليلغاوية في ثورة على السلطان شعبان ، وزاد اضطراب أحوال البلاد بسبب « طغيان هؤلاء الأجلاب وكثرة عبثهم وتجاوزهم حدود الشريعة والملك » (٥) ، مما حدا بعدد كبير من العامة إلى الوقوف في جانب السلطان . وحين تقدم اليلغاوية من وراء القلعة لم يستطيعوا الوقوف أمام العامة والممالك السلطانية الذين استأثروا في القتال حتى تمكنوا من القبض على عدد كبير من اليلغاوية ، فسجنت جماعة منهم بالإسكندرية ودقت أعناق جماعة أخرى ، وثنى البعض الآخر إلى الكرك .

(١) ابن تترى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٢٤٨ أ ، ١٧٩ ب .

(٢) تعرف اليوم باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك راجع رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ص ٢٠٥ .

(٣) ذكر Ayalon أن الممالك سبقوا المماليكيين بستين سنة في استخدام هذا السلاح النارى كما أن أوروبا سبقت الممالك في استعمال هذا السلاح بنحو أربعين سنة — راجع :

Ayalon : Gunpowder and Firearms in the Mam. Kingdom p. 4

(٤) قال بعض الشراء هجو يليغا العمرى :

بدأ شقا يليغا وعدت عداه في سفته إليه  
والكيش لم ينتقله وأضحت تنوح غرباله عليه

(٥) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

وتبدو أهمية هذا الصراع في وجود أثر الجراكسة فيه ، إذ اشتملت جماعة اليلبغاوية الذين نفروا إلى الكرك على ممالك من الجراكسة كما اشتملت على ممالك من الترك . ومن هؤلاء الجراكسة برقوق ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للسلطنة المملوكية الثانية ، وجركس الخليلى الذى عاون برقوق فى التخلص من كثير من الصعاب التى واجهته ، أما الممالك الترك فتذكر المصادر من بينهم بركة الجوبانى (١) .

ومعنى هذا أن صراع الجراكسة فى هذه المرة لم يتخذ صورته العنصرية كما حدث من قبل بل اتخذ صورة حزبية ، ولعل هذا التغيير يرجع إلى قلة عدد الجراكسة بسبب الاضطهادات المستمرة منذ أواخر عهد الناصر محمد مما دفع الجراكسة إلى تنامي عصبيتهم ، ولدى تخريض إخوانهم الترك اليلبغاوية على الثورة معهم على السلطان شعبان . ومع أن السلطان شعبان عصف بعدد كبير من اليلبغاوية الذين ثاروا عليه فإنه أبى معه بالقلعة من وثق فى إخلاصه منهم . ومن هؤلاء الأمير منكلى بغا الذى عينه السلطان شعبان أتابكاً للعساكر وزوجه من ابنته حتى يطمئن إليه . كما استقر بمنجك اليوسنى فى نياحه دمشق . غير أن هذا الفريق من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة صاروا من العوامل التى أعادت إخوانهم اليلبغاوية المنفيين إلى العمل فى مصر وسورية ؛ ذلك أن الأمير منكلى بغا أتابك العساكر عاتب السلطان فى شأن هؤلاء المنفيين بقوله «إن فى إلتلافهم قص جناح الدولة ولهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم (٢)» . كما أن أحد الأمراء اليلبغاوية الكبار وهو الأمير طشتمر الدودار ظل ييث الرعب فى نفس السلطان من فرق الممالك الأخرى حتى اقتنع السلطان بأهمية وجود منافس لفرق الممالك الأخرى ، ففعا عن المنفيين وسمح لهم بالعمل عنده أو عند نوابه فى مصر وسورية .

والواقع أن هذا التردد الذى وضع فى سياسة السلطان شعبان بالإضافة إلى غيره من عوامل ضعف السلطنة جعل الدولة المملوكية الأولى تقرب من نهايتها ، والدليل على هذا أن طشتمر الدودار لم يكن مخلصاً فى نصحه للسلطان ، بل كان يأمل بهذا أن يجمع شمل اليلبغاوية ليستبد بهم على السلطان . وكيفما كان الأمر عاد اليلبغاوية ليعمل بعضهم فى سورية وليقيم أكثرهم للخدمة فى القلعة . بعد أن هدم السلطان شعبان مناظر الكيش التى هاجم منها الأمراء القلعة (٣) .

ولعودة الممالك اليلبغاوية إلى القلعة أهمية بالغة فى وقت تسابق فيه الأمراء على

(١) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٣) راجع المقرئى : المواظ والاعتبار ص ٢ ص ١٣٤ .

السلطنة وضعت فيه فنون الفروسية بين الممالك السلطانية الترك ، وذلك أن السلطان شعبان أفاد من اليلغاوية في تعليم ممالكه فنون الفروسية التي اتقنها : ومهد امتيازهم في هذه الفنون لسيقتهم في شغل الوظائف الرئيسية في الدولة (١) .

وبدا كأنما الأحوال آنذاك تنلر بزوال حكم بيت قلاون وتمهد للعناصر الطامعة في الحكم أن تصل إليه . إذ فضلاً عن سوء الحكم فإن القحط والوباء دفعا الناس إلى تمنى زوال سلطنة هذا البيت وإلى عدم الثورة عند قتل السلطان أو عزله ، كما حدث في عهود أكثر السلاطين السابقين . والواقع أن ثمة عاملاً هاماً ظهر واضحاً في عهد السلطان شعبان؛ وهو أن اليلغاوية الجراكسة الذين عادوا من المنفى تكتلوا مع إخوانهم الجراكسة في القلعة . ثم إن اضطراب الأحوال الداخلية وخروج نواب البلاد عن الطاعة وانصراف السلاطين إلى علاجها والقضاء على الحركات الثورية ، كل ذلك مهد الطريق أمام العناصر الجركسية لإكثار عددهم وتقوية نفوذهم تمهيداً لإعلان سلطنتهم الجديدة .

والواقع أيضاً أن وصول الجراكسة إلى الحكم يمثل حركة عنصرية ، برغم أنها بدأت في صورة حزبية إذ عملوا مع غيرهم من عناصر الممالك زمن الدولة الأولى على إضعاف سلطنة بيت قلاون، حتى إذا كثر عدد الجراكسة أخذوا يصارعون غيرهم من العناصر المملوكية وهي العناصر التركية من أجل السيطرة على الجيش حتى تمكنوا في النهاية من إزالة حكم الأتراك ، وإقامة حكم الجراكسة بالقاهرة .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢ .



## الفصل الثاني

# الأمير برقوق اليلغاوى ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣ م - دخول برقوق  
فرقة اليلغاوية - اشتراك برقوق في ثورة اليلغاوية على  
السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨ م - عودته الى  
العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣ م في خدمة أمير على وأمير حاجي  
ابن السلطان شعبان - قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦ م  
وتولية ابنه أميراً على السلطنة - الصراع بين اليلغاوية  
والمماليك السلطانية - سيطرة اليلغاوية على الوظائف  
أهمها - تعيين برقوق في منصب الامرة المملوكية في خدمة  
الأمير ايتيك البدرى اليلغاوى - استقلال برقوق للشحناء  
بين زعماء اليلغا - تولية البدرى الاتاكية سنة ١٣٧٧ م -  
ترقية برقوق الى أمير طليخانة - طمع ايتيك في السلطنة  
سنة ١٣٧٧ م ولشله ازاء معارضة الخليفة - تحريض برقوق  
المماليك الترك على ايتيك البدرى - المناقشة الخافية بين برقوق  
وايتيك البدرى والتخلص منه - الاتفاق بين اليلغاوية بزعامة  
برقوق على الانفراد بشئون الدولة - تعيين برقوق في منصب  
أمير سلاح - استبعاد برقوق وبركة بالامور دون يلغا  
الناصرى - وصول برقوق الى منصب الاتاكية سنة ١٣٧٧ م -  
سميه الى تعيين اقاربه في وظائف الدولة - التناسل بين برقوق  
وبركة واستعداد النزاع بين الترك والبركس - مؤامرة في  
صلوف الجراكسة سنة ١٣٧٩ م لهدم نفوذ الجراكسة - اثارة  
برقوق للامة على بركة - انتصار الجراكسة بزعامة برقوق  
وسجن بركة - ثورة العرب ضد الجراكسة - اقتناء برقوق  
لأعداد جديدة من الجراكسة - وفاة السلطان على بن شعبان  
اواخر سنة ١٣٨١ م - تولية حاجي بن شعبان بموافقة برقوق  
سنة ١٣٨١ م - اتجاه برقوق نحو العمامة - تولية برقوق  
السلطنة سنة ١٣٨٢ م .

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالققة بأذهان اليلغاوية  
الذين عادوا إلى القاهرة ، غير أن الذى يثير الدهشة حقاً أن يفكر في هذا الأمر مملوك من  
أجناد اليلغاوية الموالدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسى .  
وأصل هذا المملوك من قبيلة كسا الجركسية (١) ، ولد حوالى سنة ٧٤١ هـ

(١) ابن تترى بردى : التجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٢ ، ٢٢٣ .

(١٣٤٠ م) (١) وحين بلغ العشرين من عمره بيع في أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان بن مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية (٢) ، ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٣ م) (٣) وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخالصكى وهو وقتذاك أتابك السلطان محمد بن حاجى . ومر برقوق فيما مر به غيره من ممالك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد فى مناظر الكيش ، التى جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل فى مظاهر القوة والسيادة ، وعمل بها على إضعاف المركز السياسى لأسرة قلاون تمهيداً لتحويل العرش عنها (٤) .

ونظراً لما لمسه الأمير يلبغا العمرى الخالصكى فى مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات ، وأصبح برقوق من جملة ممالكه الكتابية المقربين إليه (٥) واقترن اسم برقوق بالعثماني نسبة إلى التاجر الذى جلبه ، ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من السبق فى ميدان الفقه وسائر العلوم الدينية . وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الخلقة (٦) والتفوق فى فنون الحرب والفروسية (٧) .

وأخلص برقوق لسيده أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨ هـ - سنة ١٣٦٦ م (٨) . ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية . وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان « بحسم دأبهم » ونفى العناصر الثورية منهم ، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب .

(٣) Huart : Hist. Des Arabes T II p. 59.

(٤) راجع ابن الطولونى : النزهة السنية ص ٢٢١ .

(٥) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٧٥ .

Iorga : Notes & Extraits TII p 532.

(٦) الإسماعلى : لطائف أخبار الدول ص ١٤٠ . ينق ابن تترى بردى مذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقاً لتروى فى عينيه ويؤيد رأيه بأن أقاربه وإخوته حين حضروا نادوه « برقوقاً » راجع النجوم ج ١١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، المنهل ج ١ ورقة ٣١٦ أ ، ب ، انظر السيوطى . كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأثرى تأيىبى ص ٩

(٧) البينى : السيف المهند ص ٣٩ .

(٨) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

إلى الكرك (١) سنة ٧٦٩ هـ سنة ١٣٦٨ م ، غير أن اليلغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلى بغا ، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كملت مساعيهم بالنجاح ، فأفرج السلطان شعبان عنهم في سنة ٧٧٣ هـ - سنة ١٣٧١ م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركى من اليلغاوية هو بركة الجوبانى ليعملا في خدمة الأمير منجك اليوسنى نائب دمشق (٢) . بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسنى لم تشجع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء . وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التى تمهد لعودته إلى القاهرة ولا سيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريان وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر الجراكسة (٣) ، وأنهم سيحكمون سورية . وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً فى نفس برقوق ، مما بين أن طمع برقوق فى عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً . والحلاصة أنه ما كاد اليلغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرهم للسلطان شعبان خطورة اعتياده على ممالكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلغاوية من سورية ، فعاد برقوق وزميله بركة فى سنة ٧٧٥ هـ - (سنة ١٣٧٣ م) مع عدد كبير من اليلغاوية الجراكسة والترك إلى القاهرة (٤) ، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل فى القصر السلطانى فى خدمة ولدى السلطان أمير على وأمير حاجى وشغل كل منهما منصب أمير عشرة (٥) .

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عادياً ولكنه امتاز حقاً عن أمراء الممالك بلدكاه فائق ودهاء خارق ، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكائه ودهاءه فى التدبير على السلطنة المملوكية الأولى ، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر (٦) . ولم لا ؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم فى اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم .

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين : أولاهما ، أن يعمل برقوق - وهو أمير عشرة - من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش ، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد

(١) ابن شلنودن : المعبر وديوان المبدأ والمعبر ج ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢ ،

راجع بداية حياة برقوق فى السقلاطى : تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣ .

(٢) المقرئى : الملف الكبير ج ١ ورقة ١٨ .

(٣) Iorga : op cit. p. 532 .

(٤) ابن قاضى شعبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٤٦ .

(٥) المقرئى : المؤاخذ والاعتبار ج ١ ص ٢٤١

(٦) الجبرقى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٢٠ .

البحراكية في الدوائر المملوكية ، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن البحراكية من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وتقذاك ، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية في إثارة الممالك اليلبغاوية جميعها بما فيها من ترك وجركس على الممالك السلطانية أنصار بيت قلاون ، حتى إذا نجح في إضعاف شأن الممالك السلطانية استعان بالممالك البحراكية في داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على الممالك الترك في فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان . وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضآلة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها، حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلاءى الدوادار - وهو أكبر الأمراء اليلبغاوية آنذاك - دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة ، ورتب برقوق لصهره الخطة وخلصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذى شفاه من الطاعون (١) . وبعداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته . ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار ، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر ، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه ، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والحليفة المتوكل . وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد في إخلاصهم له، ومنهم الأمير يلبغا الناصرى الصغير. (٢)

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدبرأ عنه شر المؤامرات ، بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان في العقبة في الوقت الذى يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل . وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة بتحريض الممالك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمسحقتهم في وقت لم يكن يملك في يده شيئاً (٣) . ونجحت الخطة حين ضيق الممالك الأشرية على سلطانهم. الخناق وحاولوا قتله، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ ، انظر ذلك .

Muir : the Mamluk Dynasty p.p. 101-201

(٢) أسله من مماليك الأمير يلبغا الناصرى الكبير قُتِب كُتِب وقد أصبح

مقدما في دولة الصالح حابى - راجع المسقلاى الدرالكامة ج ٤ ص ٤٤٠ .

(٣) الطليط : نزهة النفوس والأبدان : ورقة ١٦ ب .



ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة . ولكن طشتمر تحلى عن السلطان شعبان (١) الذى أسرع وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة . ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفلتوا إلى أهداف مذبذبى هذه المؤامرة . وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل ، ولكن الخليفة رفض موافقتهم (٢) ؛ فأسقط في أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة .

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو في العقبة نفذ باقى البلغاوية في القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمراءهم الترك وهم طشتمر اللقاف وقرطائى الطازى واينيك البدرى وقطلقتمر العلائى . وادعوا أن السلطان شعبان مات وأنهم يريدون سلطنة ابنه أمير على . ولعب برقوق دورا هاماً في ترتيب ثورة القاهرة (٣) التى تمكن فيها الثوار من كسر شباك الزمام المائل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطانى وسلطونه ولقبوه المنصور وذلك في ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ سنة ١٣٧٦ (٤) .

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة في الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مخفياً بالقاهرة . وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من البلغاوية قد يحدث انقساماً في صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد .

أما مشكلة المماليك السلطانية فلأنها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لايس زى النساء ، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق (٥) ، وقضى البلغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة . وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام البلغاوية في ذى الحجة سنة ٧٧٨ هـ (سنة ١٣٧٦ م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى البلغاوية . وما لبث أن تدعم مركز البلغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقرروا شرعية إجراءاتهم وجددوا البيعة للسلطان على .

(١) ابن دقاق : الجوهر الشين ج ٢ ورقة ١٧٠ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٩ .

(٣) راجع ابن تفرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣١٦ .

(٤) ابن تفرى بردى : مورد الطاقة ص ٨٩ .

(٥) البينى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ - ٢٠٧ - راجع كذلك السيوطى

تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٥ ب .

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح في تهيئة الفرصة لليلغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلغاوية سادة الجيش المملوكي (١). ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة في الدولة فصار طشتمر اللغاف قائد ثورة القاهرة أثابك العساكر بمصر وتولى أيتك البدري أمير آخور كبير قرطاي ألتايزي رأس نوبة .

وأما طشتمر الدوادار الذي حرص على ثورة العقبة فلإن كبار الأمراء اليلغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للممالك الأشرافية، فعينوه بناية دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته (٢)، وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من الجراكسة إلى العمل في خدمة أيتك البدري (٣).

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلغاوية على الممالك السلطانية (الأشرافية) هي بداية التخاصن بين الأمراء اليلغاوية الترك فيها على الزعامة . أما برقوق فإنه استغل الشحنة بينهم ورسم هؤلاء الزعماء الخطة لياغت الواحد منهم الآخر . وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاي الطايزي منصب الأتابكية خافاً لطشتمر اللغاف الذي مات سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) حتى صاهر الأمير أيتك البدري أمير آخور الأتابك قرطاي الطايزي ولكن هذه المصاهرة اتخذها أيتك البدري وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته (٤). وبدأ الأمير أيتك البدري مؤامراته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية في الحرم سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) (٥). ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل ، وأعد الأمراء والممالك لقتال قرطاي وأتباعه . غير أن قرطاي سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه ، حتى إذا أطمأن إلى أيتك وحضر إليه قبض عليه أيتك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة (٦).

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقاً دبر هذه المؤامرة كذلك ويمكن أيتك من الوصول إلى الأتابكية (٧)، فانتقل أيتك بمحاليكه إلى مدرستي السلطان حسن والسلطان شعبان ، ثم أخذ الأمير أيتك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه

(١) انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٨٠ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢ .

(٥) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٣٠٧ .

(٦) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣ .

(٧) راجع ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٦ .

سلطاناً ، فأخذ يرقى أبنائه ومماليكه (١) . وحظى برقوق . بالترقى من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة (٢) . ومع هذا بدت خطوة إعلان أئنيك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد ، فأعلن رغبته في سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلغا العمرى الكبير ، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلغاوية فإنه يسهل عليه خلع متى أراد لضعف شخصيته . غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة . الجريئة لأن أحمد بن يلغا العمرى « ليس من بيت السلطان » (٣) ، فلم يسع أئنيك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواثق في الخلافة مكانه (٤) في ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ .

و حسب الأمير أئنيك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستماتة بالخليفة الجديد وبتأييد عدد كبير من خشداشيته بعد ترقيتهم السريعة . ولكن الخطوة الجريئة التي أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلغاوية في سورية ، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع أئنيك البدرى . فثاروا في ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) على أئنيك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق لليلغاوية إبعاده إليها . وحين أحس الأمير أئنيك بالثورة استشار برقوقاً في أمرها ، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإقناع الثائرين .

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أئنيك على استجلاب رضا الشعب ، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستعصمه إلى سورية ، كما صحب الحملة السلطان على ، ومن الأمراء اليلغاوية الترك اختار أئنيك يلغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة (٥) . ووجد الأمير برقوق في هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أئنيك ، فوضع خطة لقتل أئنيك أو عزله ، عهد بتنفيذها إلى يلغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح

(١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ٧٣ أ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقى إلى أصل المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة أصبح بيد كبار الأمراء إرضاءً لأتباعهم ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٤) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة) .

(٥) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠ .

المقرئى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاجتياحه وأطماعه فى السلطنة فى قوله « غير أنه لدعائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماماً » (١) .

والخلاصة هى أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أئنيك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ سنة ١٣٧٧م واضطر أئنيك إلى الفرار ونجحت خطة الأمير برقوق (٢) ، وهذأت الأحوال مؤقتاً فى سورية وعاد الأمراء الثلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ (٣) .

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى . على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقدماتاً لليلبغاوية ، لا احتراماً لألمديته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر . ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور ، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصيتى من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون « أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير » (٤) ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثانى على سلطنة بيت قلاون ، ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغاوية . واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة فى كثير من الأمور حتى أفتعاه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعامة الأميرين دمرداش وعمرباى الحسى ، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما فى الوظائف التى خلت (٥) .

ثم بدت أمام برقوق ناحية فى غاية الأهمية وهى أنه وجد أن الأتابك أصبح يسكن الاصطبل بعد هدم مناظر الكيش ، وأن الأتابك نتيجة هذا يسيطر على الخيل والسلاح ، فما زال حتى أفتع الأمير يلبغا الناصرى بترك الاصطبل والخروج من القلعة ليسكن فى بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل<sup>(٦)</sup> .

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد وظهور عدة محاولات من جانب بعض الأمراء الترك لإنتقاذ سلطنة بيت قلاون

---

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣١٢ .

(٢) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أئنيك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاون بدليل أنه صاحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة . راجع ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٠ .

(٣) العيى عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٧ .

(٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٤ .

وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة (١) . وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد ، فاتفق مع يلبغا الناصرى وبركة الجوباني على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية في مصر (٢) . وأراد بهذا أن يتخلص من طشتمر الدوادار نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك ، كما أن في هذا التعيين ما يرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون ، ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين ، وحين وصل القاهرة في ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان في استقباله (٣) ، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصرى لطشتمر الأتابكية ، وأن يعمل بدلاً منها في إمرة السلاح .

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد في الدولة ، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالى بالأصطبل للتدبير عليه ، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصرى إلى نياطة طرابلس (٤) . غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخافية بين هذين الأميرين . واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية ، إذ تسابق الأميران في شراء الممالك من جنسيهما « استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما » يمتد الأمر إلى مراتبهما ... كما أخذ ، وبيدلان الجلاء لتابعهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدمهما ، ويخصمان بالإمرة من يمنح من أهل الدولة لهما ، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما (٥) ، وخطا برقوق خطوات واسعة في هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك ، وجعل بعض هؤلاء نواباً في البلاد (٦) .

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر ، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق (٧) . ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ما ظهرت واضحة في غرة ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبتها المتكررة في نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النياطة في سورية ، أو

(١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٤ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .

(٣) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ٤ أ (نسخة غطية) .

(٤) ابن خلدون : البربر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧ .

(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٧) البهلى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ - ٢٢٩ .

مطالبته بعزمهم وتولية أصحابهما مكانهم ، ثم طالباه آخر الأمر بنى الأمير كتيبا رأس نوبته  
أوتسلية لهما ، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به في ٩ من ذى الحجة  
سنة ٧٧٩ هـ ( سنة ١٣٧٧ م ) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة (١) .  
ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابيه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاي طواشيه .  
ولم يجد شجاعة تقطاي حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيراً من أتباع الأميرين (٢) .  
وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كشيغا وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق  
الذى قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعه وحبسهم بالإسكندرية ثم نفي باقي البلغاوية  
من أنصار طشتمر إلى قوص في ١٣ من ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ ( سنة ١٣٧٧ م ) (٣) .  
وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٤) ، كما عين أحد أقربائه  
من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسى أمير أخور (٥) . وحرص برقوق على استمرار  
سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمر دأش أمير أخور ، وأسكنه معه في جانب  
الاصطبل . وبدأ كائناً الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء في هذه السنة بمصر  
واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق :  
إن برقوق الفصن كـ به في الناس أخضر (٦) .

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور في سرعة عجيبة في وقت لم يعد للسلطان على  
أحد أى نفوذ . وبدأ كائناً الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط ، إذ زالت هيبتها  
من نفوس الناس ، وانصرف الناس عن السلطان ، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير  
ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد في الدولة . وعبر الناس عن  
هذا الموقف الغريب بقولهم : « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » (٧) .

ومع أن الخطوة التالية تركزت في ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله بن بركة ،  
إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب ، وأصبح لازماً عليه أن يبذل أقصى جهده  
لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم . بيد أنه على حين أخذ يعد عدته  
لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه ، وهو الأمير اينال اليوسنى الجركسى . وكادت

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) المسقلاني : إنباء الفهر ج ١ ص ٩٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ٤ب (مخطوط) .

(٥) Sauvaget : Noms Et Surnoms Des Mam., pp. 39—40 .

(٦) المسقلاني : إنباء الفهر ج ١ ص ٩٤ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلصتها أن الأمير إينال اليوسفي كان شديد الكراهية لبركة ، وطالما حرص الأمير برقوق للثورة عليه وقتله ، ولكن برقوقاً لم يجه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال ، فانهز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة في شعبان سنة ٧٨١ هـ (سنة ١٣٧٩م) (١)، وخروج بركة في نفس الوقت للصيد خارج القاهرة ، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية . وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ في نهب بيت برقوق وما في خزائنه (٢) ، ثم خدع صغار مماليك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه في خطته (٣) ، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلي ، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق ، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه ، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض إجابة طلبه (٤) .

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مسرعاً إلى القاهرة ، ونهض لإيقاظه قريبه ايتمش الجاسي أمير أخور ، فأنزله أيتمش في اصطبله وجعل بماليكه في خدمته . وقصد برقوق القلعة بمماليك ايتمش ، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق . وبعد أن أحرق برقوق باب السر — أحد أبواب القلعة — استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى ، والحجارة (٥) . ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن مماليك برقوق حين رأوا استأذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهم واضطروه إلى الفرار وفي جسمه نشابة (٦) . ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن يستدل منه على شركائه في المؤامرة دون جدوى، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكتفى برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره (٧) .

(١) ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٢) السلاحي : مختصر التواريخ ورقة ٨١ ب .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٤) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ (شمسية) ورقة ١٧٦ .

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٥ - مما قاله ابن العطار الشاعر

في هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابة  
نهار الاثنين في عز وتمكين  
وراح إينال مع سودون وانكسرا  
وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة في هذه المرة بالثورة على برقوق دفعه إلى الشك في مدى إخلاص عنصره له مما جعله يتقلب على الجراكسة، وقبض على من اشتركوا مع إينال في الفتنة، ثم استدعى بليغا الناصري الذي أبعدته من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال (١). وحين حضر بركة اجتماع برقوق وبحث الائتلاف الموقف واتفقا على التعاون في توزيع الوظائف التي خلعت وشغلها بالمقررين من أتباعهما. ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة في هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصري في هذه الظروف ذو قيمة كبيرة في كسب الجولة المقبلة. ولذا بدأ برقوق يعد عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جدد من عوامل.

وأول هذه العوامل ما ظهر من كراهية الناس لبركة بسبب قسوته، حتى إن العلماء تلمذوا حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠ هـ (٢)، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها إقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم (٣). واستغل برقوق سيرة بركة السيئة، وكراهية العلماء له وشهرته، كما ملأ الأسباع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين في الوصول إلى مناصب القضاء (٤)، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة (٥).

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق، دبرها المماليك السلطانية الترك، وبعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده (٦). ولأشك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال في المحيط السياسي بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من اهتمام الناس الجانب الأكبر.

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستيلاء بأموال الدولة امتاز برقوق بالثبوت في الأمور وميله

(١) المرجع السابق والجذء ص ٤٦٨.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٣ ص ٢٣٦.

(٣) Ziadeh. N.: Urban Life In Syria: p. 42

(٤) ابن قاضي شبة: ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢.

(٥) المسقلاني: إنباء القم ج ١ ص ١٠٩، ص ١٢٦.

(٦) ابن تغرى بردى: التجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٦.



إلى تغلب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيراً ما عارض برقوق أصحاب بركة في استبدادهم بالأموال وضرب على أبلدى الكثيرين منهم ، فلا عجب أن عمل ممالك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمر الدولة دونه والغدر به (١) .

وثة ناحية توجب الالتفات في هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك . وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق ، هى أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة — وهم قلة — فرقتين من الترك ، أولاهما فرقة الأشرية ممالك السلطان الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق ، وثانيهما فرقة ممالك بركة ، وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسنى لهم تحقيق مآربهم . ولم يشأ برقوق أن يحارب في ميدانين بل أخذ يتوعد إلى الأشرية ويقابلهم في طباقهم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢) ، على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير في الوظائف لتأييد مركزه . وأهم هذه التغييرات إبعاده بعض الممالك الترك إلى نابات الشام (٣) ، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة ، كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى . وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض في تعيين ممالك منافسه ويحل في الوظائف الرئيسية الممالك من بنى جنسه . واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما في إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق . ثم تآزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى ، أمير أخوره وأحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه ، ورفض برقوق بطبيعة الحال ، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب في التنحي عن وظيفته بشرط ترشيده السلطان ، وفي نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة . وبذلك القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة في الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووعد ألا يتحدث في أمر من أمور الدولة . وسر برقوق لهذه النتيجة ، وخلع على من سعى في الصلح وجمع الأمراء للعب في الميدان ابتهاجاً بعودة الوثام (٤) .

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لجأ إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول في معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة ، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تم استعداداته ؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات في أول ربيع الأول سنة ٧٨٢ هـ

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٣) راجع المسقلانى : إنباء الغر ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها على أميرين من أتباع بركة (١) . وكانت هذه هي الشرارة الأولى في هذا الصراع الذي عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركي بالقاهرة (٢) . وأوضح المقرئ صورة هذا الصراع العنصري السافر في قوله . « وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق ، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أئزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالخرافة من الاصطبل ، ودقت الكنوسات جميعاً بالطلبخانا من القلعة (٣) » .

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكتبته من السيطرة على السلاح، كازاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه ، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغيان الأمير بركة .

وبدأ برقوق في تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلقة والأجناد البطالة طوائف ، وركز كل طائفة منهم على تربة من التراب فيما بين القلعة وقبة النصر (٤) ، وعزل برقوق وإلى القاهرة الموالي لبركة وأعاد حسين ابن الكوراني المعروف بشدته وصرامته التي سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوائط أصحاب السلاح وأخذ ما فيها ، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق ، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب . وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل ، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة للقلعة ودار الضيافة وصهرريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة في هذه المنطقة للأمير بزلار العمري (٥) .

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ابتمش البيجاسي الذي نادى في العامة بأن « من قبض مملوكاً من ممالكك بركة فله بركة ولنا الرمح » (٦) . كما حرص ابتمش على نهب بيت بركة . ووجد العامة والزعر في هذا كله فرصة طيبة للحصول

(١) السخاوى : الفصول اللاحقة ج ٣ ص ١١ ، السيوطي : تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٦ ب .

(٢) راجع المعنى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦١٠ - ٦١١ .

(٤) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

(٥) السقلاوى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤١ .

(٦) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

على غنائم في وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه . وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن سبهوه سرقوا رخامه وشبابيكه ، ثم أشعلوا فيه النيران . وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه . وعلى الرغم من أن برقوقاً استدعى يلبنغا الناصرى ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركى والجرمكى أسرع يلبنغا الناصرى وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك (١) ، ولهذا رجحت كفة بركة في المناوشات الأولى التى اشتبك فيها عسكره مع عسكر ايتمش (٢) .

ولذا وجد بركة نفسه مضطراً للقتال في أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر ، والثانية إلى ناحية دار الضيافة ، والثالثة إلى بين العروستين (٣) ؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين ، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بخرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيوخونى بخلعة بناية الشام ، غير أن بركة الذى أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق ورفض قبول عرضه .

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق في هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بداً من الاستماتة في القتال رغم الخسارة التى لحقت به (٤) . والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق ، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة في أيدي أصحاب بركة (٥) .

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه في ١٠ من ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ (١٣٨٠م) . وتفرقت عساكر بركة في هذا اليوم الذى قيل إنه اشتدت فيه الحرارة . وهرب بركة إلى جامع المقسى وظل مختفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبس به بالإسكندرية مع عدد من مماليكه (٦) . واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التى

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) السلاى : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ .

(٥) ابن قاضى شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

(٦) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤٣ .

قيل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها في أثناء توليه وظيفته الأخيرة . وأثرت هذه الفتنة في أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مقفلة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص (١) ، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة المواليين له ، وعزل يلبغا الناصري وسجنه وقبض على ممالكه ووزع إقطاعاتهم وإقطاع بركة على الممالك الجراكسة (٢) . ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال في مصر ، بل أجرى حركة تطهير في الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه (٣) .

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة في هذه السنة (٤) ، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق ، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان (٥) ، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركي وليقضى على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم ، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه . وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر سياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين ، تلك السياسة التي قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة . ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الإسكندرية سرا بقتل بركة في السجن (٦) ، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام ، وأهمه بقتل بركة دون إذن منه . وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى ممالك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاءً متناثرة (٧) .

(١) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٨ .

(٢) السلاى : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ ، ابن إلياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن إلياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٨ في ذلك يقول ابن حبيب الحلبي :

يا ويحبها من حالة وشؤمها من حركة  
وقبجها من فتنة فيها أزلت بركة

(٤) ابن قاضي شهاب : الدليل على تاريخ الإسلام ، المجلد ٣ ورقة ١٤٦ .

(٥) من هؤلاء الشعراء القيم خنط الغباري ومن قوله :

مصر صارت بعد انقباض في انشراح وقلها مزخرف والقصور  
يا لمي احفظ لنا برقوق واحرس الجند وانصر المنصور

ابن إلياس ج ١ ص ٢٤٨ .

(٦) ابن إلياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٧) المسكافي إنباء النمر ج ١ ص ١٤٥ .

ويلحق المقرئى على النتائج التى ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة فى السلطة فى قوله « فأنقضت دولة الأتراك بأسرها وتُتبعوا بالأخذ فقتلوا ونُفوا وسُجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنة كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك .. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غير احتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم «(١) .

غير أن هذه المدة التى تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العربان فى مصر من الثورة رغبة فى إعادة الحكم إليها . وكانت هذه فرصة مواتية لقبائل العربان فى مصر إذ طالما نادى طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك (٢) ، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر (٣) . ولعل أهم هذه الثورات التى أقلقت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية فى سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) هى ثورة بدر بن سلام كبير عربان الموارة فى غرب الدلتا . وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج ، ووجد بدر بن سلام الفرصة مواتية لإعادة النفوذ العربى إلى مصر ، وهاجم دمنهور فى خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياح . وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله فى مقاومة المماليك الترك (٤) ، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين فى ربيع الآخر سنة ٧٨٢ هـ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك . وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحي البحيرة حيث ضربوا خيامهم . ونحدم الحظ الأمير برقوق فى هذه المرة ، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من أحد العربان على خطتهم فى هجوم معسكر المماليك وهم فى خيامهم فى أثناء الليل ، فأخذوا حلزهم وخرجوا من الخيام وكثروا بالقرب منها . فلما انتصف الليل هجم العربان على الخيام فوجدوها خالية ، وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربى وأسروا منهم أكثر من ذلك . وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعربان حاسماً ، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العربان جمالهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ .

(٢) راجع عن هذه الثورات المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) ابن خلدون : البربر وديوان المتبدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠-٤٧١ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

وأغناهم وخيولهم وعادوا بها إلى مصر (١) ، فإن عربان البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة (٢) ، كما نفي برقوق باقي عربان هواراة إلى الصعيد ليأمن شرهم (٣) .

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التي واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة ليتمكن الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التي اعتمد القيام بها وهي نقل السلطنة من الأتراك إلى الجراكسة ، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر (٤) ، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من العطايا ، حتى بذل جهوداً كبيرة في جمعهم وإحضارهم لمصر (٥) . ولما حضر أنس والد الأمير برقوق في ذى الحجة سنة ٧٨٢ هـ (سنة ١٣٧٩ م) في عدد كبير من أقاربه وأولادهم صحبهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق (٦) . واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعاً ، فأركب العساكر وسافر الناس «على طبقاتهم» لاستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسطحة بسرياقوس . ودخل «الخواجه» عثمان وعليه خلعه بطرر زركش ، وركب عن يمينه نائب دمشق ، وركب أنس عن يساره . وحين التقى برقوق بوالده مد له والده يده فأخذهما برقوق وقبلها ووضعها على رأسه لإجلالاً له أمام الناس ثم أخذ في تقديم كبار أمراء مصر إليه (٧) ، وبعد أن خلع على أنس يلمارة الف (٨) ، أجلس في صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء . وما أن انتهت مراسم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التي زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة (٩) . وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده بالأصطبل كما أنزل أقاربه وبني عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم في وظائف مختلفة (١٠) .

(١) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) المقرئزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠ .

(٤) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦٤ .

(٥) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤ ، ورقة ٢٧٣ .

(٦) التسقلائي : إنباء النمر ج ١ ص ١٤٨ .

(٧) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٣ .

(٨) التسقلائي : إنباء النمر ج ١ ص ١٤٨ .

(٩) ابن لباس : بلائع الزهور ج ١ ص ٢٥٤ .

(١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٣ .

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها بعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجركس، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه «دون أن يتطحن في هذا عثران» على قول العسقلاني (١).

وفي يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (سنة ١٣٨١ م) توفي السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر، ولم تكن له في هذه المدة من السلطنة إلا اسمها (٢). ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون سلطنته عقب وفاة السلطان على، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التهديد لإعلان السلطنة لم تكن كافية، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلينا» (٣) حين ردد الناس هذا الخبر. ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضي التريث في الأمر، وأن هذه الحركة لم يحن أوانها. ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل، وتحدث بنفسه معهم في سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان، وفي هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقتضي بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاو (٤). ولإذ لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هو أكبر من أمير حاجي الذي لم يمازج التاسعة من عمره أحضره وسلطونه في ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) وبايعه الخليفة ملقباً بإياه بالملك الصالح، وأكد الخليفة في تقليده للأمير حاجي بالسلطنة أن يشترك معه في تدبير أمور الدولة الأمير برقوق «لتشد الناس إلى عقدة محكمة» (٥). وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة.

ومن الطبيعي أن تولية أمير حاجي السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبيين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ (٦) أوضحه ابن تغري بردي في قوله «بعد أن انقض الموكب أخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وفي خدمته بقية الأمراء، يركبون في خدمته ويتزلون عنده ويأكلون السهاط» (٧). وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من البلباغوية في

(١) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) الطيب : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ج ٣ ورقة ١٠٩٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٠٧ .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٣-٤٧٤ .

(٦) راجع Ency of Islam Art. Barkuk

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٠٨ .

الوظائف الرئيسية (١) . كما اهتم بترتيب الأمور في الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية ، واتباع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب ؛ ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جرکس الخليلي فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة في التراء عن هذا الطريق السهل . ومن هذه الفلوس التي أخرجها الأمير جرکس فلوس زنته أوقية بربع درهم ، وفلوس زنته نصف أوقية وفلوس بفلسين . وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء . فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس ، وكان لهذا أكبر الأثر في إنعاش الحالة الاقتصادية (٢) . ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغاني (٣) بحماة والكرک والشوبك والمنيا ، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح (٤) بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستواره وشورى وبلطيم (٥) ، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها ، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق (٦) .

أما في الخارج فلأن الأمير برقوق انتهز الفرصة لإظهار قوته ، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣ هـ على حلب موافياً إذ استطاع برقوق هزيمتهم ورددهم على أعقابهم (٧) .

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومحقة، حتى إن

- 
- (١) أوضح ابن تغري بردي أن طريقة الوصول إلى الوظائف في وقت سيطرة الأمراء هي «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغري بردي : النجوم - ج ١١ ص ٢١٤ .
- (٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨ .
- (٣) قال المقرئزي عن ضمان المغاني (الأغاني) أنه كان بلاداً عظيماً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البقاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها ، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو غشبت امرأة يدها بحمائه أو أراد أحد أن يعمل فرحاً لا بد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحاً بأفان أو نفّس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاد لا يوصف «المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٦ .
- (٤) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء من يتتاع من أردبين فما دونهما . راجع المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٦ .
- (٥) كان مقررراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنوياً (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) .

(٦) العيني : عقد الجمان ج ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١ .

(٧) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٤٠٤ .



أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله . غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبئه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة ، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله . واتفق في هذا الاجتماع على القبض على متزعمي هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم في سجون القلعة (١) . وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة في سلسلة المؤامرات التي دبرت للوقوف أمام العنصر الجركسي وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نبى برقوق لئتمش الخاصكى وبطا الأشرفي متزعمي هذه المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجلو « فلم يبق له معاند ، وصار له من الممالك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فراقهم إلى ما لم يخطر لهم ببال » (٢) .

ومع كل هذا ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه ، بل إنه حين شعر بأن الرعية «أنست بحسن سياسته وجميل سيرته» (٣) ، تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجي فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان . وكان لكشف هذه المؤامرة صدق في موقف الأمراء المناصرين لبرقوق ، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم ، واجتمعوا للتفاوض في إسقاط «سلطنة الصغار» وإقامة برقوق سلطاناً على البلاد (٤) . وتوالت الاجتماعات التي أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد في وقت تولى أمرها سلطان صغير . كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدي إلى طمع الأعداء في البلاد (٥) . ثم عرض الأمراء الجراكسة: لئتمش البجاسي وجركس الخليلي وقردم الحسني على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه على السواء (٦) ، ولكن برقوقاً أبدى رغبته في أن تأتي هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء في مصر وسورية ، ولهذا ركب الأمير سودون الفخري حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استرضاهم ومازال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق في أمر سلطنته «وهو نوا عليه الأمر» وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء في سورية . وإذ زالت كل العقبات التي اعترضت الأمير برقوق، وآخر هاموت اثنين من كبار الأمراء الليغاوية أقدم من

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥ .

(٣) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والمعبر ج ٥ ص ٤٧٤ .

(٤) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤ .

برقوق هجرة وإمارة ، وهما : الأمير أقطمر عبد الغنى والأمير ايدمر الشمسى ، قبل  
برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء فى أمر سلطنته (١) .

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله  
فى ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢) ، إلى الاجتماع بهمع القضاة الأربعة  
وسائر الأمراء فى باب السلسلة . وقام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر فى  
وسط المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، وبإسادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت  
وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة  
والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع  
فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » (٢) . وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى  
المجلس « أن الأمور مضطربة ، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد  
الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام » (٣) . ولم يكن هناك بطبيعة الحال  
من يجرؤ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان  
الصالح حاجى بعد أن حكم سنه وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق (٤) ؛  
لما علموا فيه من « حسن سيرته وإحكام سريره ، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته ،  
وحسن تدبيره فى سياسته ، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته ، ولما فيه من المصلحة  
التامة للخاصة والعامة » (٥) . وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى  
وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه إلى أهله بالدور السلطانية ، ثم أخذاه منه الفجاء (٦)  
وأحضرهما إلى السلطان برقوق ، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان  
إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه « بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم  
والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ماتحت ولايته شرقاً وغرباً ،  
برأ وبجراً » (٧) .

جلس برقوق على تخت السلطنة فى وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤-٢١٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٥ .

(٣) ابن أبى السور : الروضة الزهية ورقة ٤٠ .

(٤) المعنى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .

(٥) المعنى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .

(٦) النجاء هى شارة السلطنة ، وهى كلمة فارسية معربة ومعناها السيف الصغير أو السكين

المنحنية . انظر ابن تفرى بردى النجوم ج ١٠ حاشية ٢ ص ٢٣١ .

(٧) الخطيب : نزه النفوس والأبدان ورقة ١ ب .

رمضان سنة ٧٨٤ هـ وأقيمت عليه خلعة السلطنة وهي خلعة سوداء ، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني أن يلقب « بالملك الظاهر » فإنه تسلمن وقت « الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافياً » (١)

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التي رسمها لهذا الغرض . واعترف به في الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم في الوقت الذي كان فيه برقوق مملوكاً عادياً في صفوف الجيش (٢) .

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة ، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطاني ، والقبعة والطير على رأسه ، وطلع من باب السر ، وعند ركوبه « بأبيه السلطنة » أمطرت السماء فتضام الناس يمين السلطنة الجديدة . ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق . وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل ، كما زينت القاهرة وأنعمت البلاد سبعة أيام ، ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق (٣) وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله (٤) . وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام ، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلمن بعده (٥) .

والواقع أن نجاح السلطان برقوق في الترقى من صفوف الجندي إلى السلطنة مرجعه حكمته ودهائه ، وإحكام خطته التي رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم ، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة . ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصري ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك ، ولذا حرص

(١) نفس المرجع والجزء والصفة .

(٢) Muir : The Mamluk Dynasty p. 106

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ ب .

(٤) مما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن المطار :

ظهور يوم الأربعاء ابتدا	بالظاهر	المتن	بالقاهر
والبشر قد تم وكل امرئ	متشرح	الباطن	بالظاهر

وما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدي :

قول الملك برقوق المندي	بسم الجد والأقدار تم
نهار الأربعاء بعد الظهر	والتبريع في الأفلاك حكم

راجع ابن تفرى بردى النجوم ج ١١ ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ .

في بداية سلطته على إرضاء الأمراء البلغاوية من الترك والجر كس على السواء ، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلي الجركسي مشيراً للدولة ، وفي الوقت نفسه ، جعل الأمير سودون الفخري التركي نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن بليغا الناصري وأقره في قيادة حلب بعد أن حضر بليغا وقبل الأرض بين يديه (١) . على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات في يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعاً إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم في شيء إلا بعد مراجعته .

وهكذا أيضاً أنهى برقوق سلطنة الترك في مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاون ، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة . وأقام برقوق دولة جديدة هي الدولة المملوكية الثانية التي أطلق عليها المؤرخون المعاصرون «دولة الجراكسة» (٢) ، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم ، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف . وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارة الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور ، وأخذ يوجه سياسة الدولة في الداخل والخارج ، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك ، ذلك النفوذ الذي أضعف السلطنة المملوكية الأولى . ومن هذه العبارات ما قاله ابن خلدون : «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم في إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أرايحها» (٣) .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١ .

(٢) راجع المقرئ : المخطوط ج ٢ ص ٢٤١ .

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المتنبئ والخبر ج ٥ ص ٧٤ .

## الفصل الثالث

# حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق - ثورة الطنينا السلطاني  
التركي نائب الإبلستين ١٢٨٢ م - طمع الخليفة المتوكل سنة  
١٢٨٣ م في السلطنة وسجن المتوكل - كشف مؤامرة أحمد  
بن البرهان سنة ١٢٨٦ م - ثورة المماليك الترك يزعماء  
منطاش نائب ملطية سنة ١٢٨٨ م - اعلان السلطان برقوق  
عداءه للترك ومحاولته قتل يلبيغا الناصري - توحيد صفوف  
الترك للمقاومة الجركس - اعلان الصراع بين الترك والبراكسة -  
معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك  
الترك سنة ١٢٨٩ م - عودة جيش برقوق منهزماً الى القاهرة  
استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٢٨٩ م خلع برقوق  
واعادة السلطان حاجي الى الحكم - عوامل انقسام الترك على  
أنفسهم - النزاع بين منطاش ويليغا الناصري - خروج  
السلطان برقوق من الكرك الى دمشق في أواخر سنة ١٢٨٩ م  
انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق - عودة السلطان  
برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجي .

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تديرها وتنفيذها ، غير أن  
الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود ، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط  
المؤامرات التي دبرها المماليك الترك ضد سلطنته . ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ في  
إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك ، فرقة اليلبغاوية الترك  
وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان . ولما كان لليلبغاوية الترك فضل الموافقة على  
سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمراءهم في الحكم إشراكاً شكلياً ، حتى يمكنه أن ينصرف  
إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك : وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية  
من إقطاعاتهم وتركهم بظالين وبرر السلطان برقوق إجراءاته بقوله : «إن هؤلاء .  
ساختلوا أستاذهم بعد أن عاشوا في نعمته مدة طويلة ، وإنه لهذا ولم يعد يأمن لهم » (١) .  
وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ه أ .

الأشرقية الترك . ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التي أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق في جركة الدولة كلها وماتبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية .

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنغا السلطاني الأشرقي نائب أبلستين (١) . ذلك أن هذا الأمير هاجم في ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ (سنة ١٣٨٢ م) قلعة دارنده (٢) المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً . غير أن ممالك هؤلاء الأمراء تمكنوا من القبض على ممالك الطنغا السلطاني وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان ؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته . ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلغاوية في سورية بدليل أن الأمير يلغا الناصري نائب حلب لم ينضم إلى الطنغا السلطاني في حركته هذه ، بل على العكس كتب إلى الطنغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه .

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان في نفوس الأشرقية الترك من الحقد ورغبتهم في الثورة على حكم الجراكسة ، فإنها تدل على مدى تفكك الممالك الترك آنئذ ، حتى إن الطنغا السلطاني حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب سوريا من اليلغاوية الترك فهاجماً إلى بلاد التار بعد أن أعلن رأيه صراحة في قوله . ولا أكون في دولة حاكمها جركسي » (٣) .

على أن الأشرقية جربوا حظهم مرة أخرى في أول رجب سنة ٧٨٥ هـ (سنة ١٣٨٣ م) ؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله ، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قوط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلاني أمير جنداروم معهما نحو ثمانمائة فارس من الترك (٤) باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان ، وإعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد (٥) . وحين كشفت هذه المؤامرة وجرىء بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق

- 
- (١) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية - راجع ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٦ .
  - (٢) قلعة دارنده كانت من بلاد الفلور والعوامم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طلبخانة - انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢٨ .
  - (٣) ابن تقي بردي : التنجيم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٩ .
  - (٤) المعين : عقد الجان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ .
  - (٥) المسقاني : إنباء الفجر ج ١ ص ٢٠٠-٢٠١ .

هددهم بالويل والثبور ، حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم « هؤلاء ظلمتموه وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً مني في الباطن ، ولم أفلد برقوقاً إلا غصبا » (١) . وظهر من اعترافهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم (٢) . وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت ، ووافقه البعض على هذا الحكم ، على حين اختلف القضاة فبأبيتهم في أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين ؛ وهذا تخلص عجيب في بابه من ورطة هذا اليوم (٣) . ولإزاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقبه بـ « الوائق بالله » وبالحكم على قرط بن عمر بالموت (٤) .

على أن هذه المؤامرة التي وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيरी الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم ، كما نفي عدداً آخر إلى سورية بطالين .

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجهوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية البلغايا وكذلك ، وبما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبيغا الناصري نائب حلب سلك مسلكاً شائناً في سنة ٧٨٧ هـ (سنة ١٣٨٥ م) من سولي بن دلغادر التركاني عدو السلطنة المملوكية الثانية ، ذلك أن سولي بن دلغادر حضر إلى حلب طامعاً ، فأنزله يلبيغا الناصري عنده ، وكتب السلطان برقوق في أمره ، فأرسل برقوق إلى يلبيغا بالتبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً . غير أن يلبيغا الناصري وجد في القضاء على سولي بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالي توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك — فتظاهر يلبيغا بطاعة السلطان وقيد سولي وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه . وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على إراءته بخروجه بالعسكر في طلب سولي ، ولكنه سار يوماً في غير الطريق الذي سار فيه سولي بن دلغادر ، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه (٥) . وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبيغا ، وخشى تكرار مؤامراته بعد أن ظهرت نياته واضحة ،

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقة ٧ أ .

(٢) المرجع نفسه والجزء والصقحة .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٠ .

(٤) ابن الجواد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٨٦ .

(٥) المعين : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩ .

(٦) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

فأرسل بعزله عن نيابة حلب ، وعين مكانه الأمير سودون المظفرى صاحب حلب الذى طالما دس على يلبغا الناصرى عند السلطان . وحين جاء يلبغا الناصرى إلى القاهرة فرجب سنة ٧٨٧ هـ عثف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية (١) .

وماكاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصرى وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته فى السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء فى دمشق . وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٨٨ هـ (سنة ١٣٨٦ م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدين ليقفوا بين يدى السلطان برقوق . وحين واجههم السلطان بتهمة « السعى فى نقص المملكة والدعاء لإمام قرشى » (٢) تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان فى جراءة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه « غير أهل للقيام بأمر المسلمين وعدد له بأمور عليه ، منها أخذ المكوس وغير ذلك ، وأنه لا يقوم بأمر المسلمين إلا إمام قرشى » (٣) . وكانت هذه الحركة غريبة فى بابها وقتذاك ، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن يكون للترك ضلع فى هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبهم حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك ، غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمائل (٤) . واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء كانوا من فريق الأشرية أو اليلغاوية ، فقتبهم بالقتل والنفي كما ترك عدداً كبيراً منهم يطالبين . وزيادة فى الحيلة أمر برقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراء القصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتلأ الأمراء لهذا الأمر (٥) .

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرية عز الأمر على تمرىغا الأفضلى الأشرى المعروف بمنطاش نائب ملطية . (٦) وأخذ فى جمع الترك الذين نفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان . وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة

---

(١) ابن خلدون : البر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ، ص ٤٧٦ .

(٢) القرىزى : السلوك ج ٣ ص ٤٧٠ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦ .

(٥) المستقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٣ .

(٦) أصله من ممالك السلطان الأشراف شعبان الترك أبى عليه الظاهر برقوق وعينه فى نيابة ملطية بشفاة قنحاس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذى جلبه بالغ فى الإحسان إليه - راجع المستقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٦٤ .



لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته . ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء ، وأرسل دوايداره ملكتمر بعشرة آلاف دينار ليتفحقها في أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش (١) . وأثبتت المعلومات التي جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن محاربته (٢) . وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن في وسعه إطلاق سراح يليغا الناصرى وإعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى (٣) . وذلك في ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلغاوية ويثيرهم على الأشرية وبذا يستفيد من الانقسام في صفوف الترك .

يبد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضي ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يليغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه في ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرية الترك (٤) . وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يليغا الناصرى وتوقع أن ينضم يليغا إلى بني جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة .

على أن يليغا الناصرى لم يحرّو على الانضمام علناً لمنطاش ، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن انضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس ، وقرا محمد التركانى ، ونائب البيرة . أما يليغا الناصرى ، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه . ولكنه بدلاً من أن يتجه إلى منطاش في ملطية اتجه أولاً إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها (٥) . ويبدو أن صاحب سيواس خشى أن يقع بين هجومين : أحدهما هجوم تيمورلنك الذى أخذ يزحف غرباً ، والثانى هجوم جيوش السلطان ، فبادر إلى إعلان الطاعة (٦) واكتفى يليغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان في وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها (٧) . والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يليغا الناصرى سبب للسلطان برقوق متاعب كثيرة ، إذ أنه لم يشتبك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) المسقافى : إنباء النمر ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٨٠ .

(٤) راجع المسقافى : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٣ .

(٧) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨ .

الممالك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوجد صفوف الممالك الترك .

وفي ربيع الآخر سنة ٧٩٠ هـ (سنة ١٣٨٨ م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع في خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبا الجوباني نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إختلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكتار الأمير الطنبا الجوباني من شراء الممالك (١) . وفسر الترك مسلك برقوق من الجوباني بأنه حمل كل معاني الغدر . ذلك أنه حين حضر الطنبا الجوباني إلى مصر ليدل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية وأقر منافسه طرنتاي في نيابة دمشق (٢) .

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم ، وخاصة مثيري الفتن من الممالك البطالين . وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه (٣) . وتكتل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة (٤) ؛ أما يلغا الناصري فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وآثر الحياذ واحتجب في بيته خشية اصطدامه بإينال اليوسني الجركسي . غير أنه في الوقت نفسه اتصل بمنطاش سرأ وشجعه على الإحتياج بمحماه، حيث وجد في أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية (٥) .

أثارت هذه الأخبار السلطان برقوق ، ولكنه كظم غيظه ريثما تم استعداداته للانتقام من يلغا الناصري ، حيث إنه لم يكن يستهان بقوة يلغا الناصري بعد أن ازداد نفوذه في حاب بسبب تمكنه من أسر حوالي ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم (٦) .

وحتى تم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء ، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك في سورية أخذ يتودد إلى يلغا الناصري وبعث إليه هدية من جملتها « خيول عربية وكتايش وأطرزة

---

(١) أصل الطنبا الجوباني من اليلغاوية - وثق به برقوق وجعله أمير مجلس ومعناه صاحب الشورى في الدولة - راجع ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٣) راجع ابن دقماق : الجواهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصورة) .

(٤) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٥) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٠ .

زر كرش ، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور في أمر منطاش (١) . غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته ، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل ، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله في مقاومة حركتي التركمان ومنطاش ، وخوفه على حلب منهما (٢) ، وبعث يلبغا الناصري برده على يد رسول من عنده . ولكن رغبته في الانتقام من السلطان برقوق دفعتة إلى الكتابة سراً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق ، كما طلب من رسوله أن يكشف له في أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره السلطان له ولإخوانه الترك من المكائد (٣) .

وبرغم أن السلطان برقوق أظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصري إلا أن خوفه من مكائده يلبغا الناصري وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته ، الذين كسب ودهم بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع (٤) ؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكنمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها ؛ ظاهرها مطالبة يلبغا الناصري بصلح سودون المظفرى بحضور ملكنمر والأمراء والقضاة والأعيان وأن يلبسا خلعتي السلطان بعد الصلح . ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التي دبرها السلطان مع خاصكيته ، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصري وبين سودون المظفرى ، لما بينهما من عداوة مستحكمة . فكتب السلطان إلى سودون المظفرى وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصري وقتله في أثناء اجتماع الصلح (٥) وتعهد السلطان أن يؤخر رسول الناصري عنده حتى يسبقه دوداره ملكنمر إلى حلب ، بيد أن بقطة رسول الناصري مكنته من أن يلم بتفاصيل مؤامرة السلطان . وحين أزمع رسول يلبغا السفر جدد في السير إلى حلب حتى سبق ملكنمر ، وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة ، فاحتاط الناصري للأمر (٦) .

(١) راجع السقلافي : إنباء النمر ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٩ .

(٥) الجبى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ - روى ابن الفرات أنه رأى بخط بعض المؤرخين أن الأمير ملكنمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصري مصاهرة ، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أنخير الشيخ حسن بما أبطنه - راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م خرج الأمير يلبغا الناصري واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان ، وبعد أن أخذ منه هدايا لسلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب (١) ، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان . وبعد أن قرئ الكتاب أرسل الناصري إلى سودون المظفرى يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلياً بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصري . وإزاء إلحاح الناصري عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملبسه خشية غدر الناصري ، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشي أمير آخور الناصري ، وتقدم قازان ولمس كنف سودون ، فوجد السلاح تحت ملبسه ، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله : « يا أمير ! الذي يمي للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب ؟ » (٢) فسبه سودون حتى سل قازان سيفه وضربه . ثم أخذت سودون المظفرى السيوف من كل جانب من ممالك الناصري الذين رتبهم لهذا الأمر . وتبع هذا معركة بين ممالك سودون وممالك الناصري انتهت بهزيمة ممالك سودون (٣) .

وهكذا كشف يلبغا الناصري عن موقف السلطان برقوق ونواياه إزائه وإزاء الممالك الترك . وبدأ يلبغا الناصري منذئذ يواجه السلطان علناً ، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق (٤) . كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها (٥) . ودخل في طاعته أهل حلب وأمرأوا وعسكرها وبعض التركمان والعرب (٦) ، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك ، فكتب إلى منطاش يدعو إلى محالفته ، وصادفت هذه الدعوى هوى في نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل في طاعته (٧) . وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد الممالك الترك في فرقة الأشرفية مع الممالك الترك اليلبغاوية وأنذرت بالتالي بسوء مصير سلطنة برقوق :

ولم يكن في وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد

- 
- (١) دار السعادة هي دار الحكومة التي يقيم فيها الوالي والحاكم ومنها يدير شئون الحكم .
  - (٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩ .
  - (٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٠١ .
  - (٤) ابن خلدون : العبر وديوان المنبأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٥ .
  - (٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٣ .
  - (٦) السقلاقي : إنباء النمر ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
  - (٧) السقلاقي : الدور الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك ، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسنى  
الجرمكى أتأبك دمشق تقليداً بنبابة حلب ، وأمره بالقبض على الناصرى (١) .  
غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة ، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقاله من قبل ولم  
يسارع إلى تنفيذ أوامره .

وفى التاسع من صفر سنة ٧٩١ هـ ( سنة ١٣٨٩ م ) تخرج موقف برقوق ، فاستدعى  
قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمرأها وشاورهم في أمر عصيان الناصرى ، وعرض  
عليهم أن يخرج لقتاله ، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال  
الناصرى من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم (٢) . وتردد السلطان  
كثيراً في قبول ما أشار به الأمراء . ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان  
لم يرغب في أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى في القاهرة بعدد قليل ، ولهذا  
تودد إلى الأمراء كثيراً ، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته (٣) .

وظل الموقف مائماً حتى بدا السلطان برقوق في مركز لا يحسد عليه حين جاءت  
الأخبار من دمشق بأن الأمير قرايغا فرج الله ، والأمير نزلار العمرى الناصرى ،  
والأمير دمرداش اليوسنى ، والأمير كتيغا الخاصكى الأشرفى اجتمعوا بعدد كبير من  
المماليك الأشرافى الترك فى سورية (٤) وهاجموا طرابلس ، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير  
استدبر المحمدي ، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمراءها الموالين للسلطان  
برقوق (٥) . وفضلاً عن هذا أعلن يليغا الناصرى فى حلب نبأ خلع السلطان برقوق  
وسلطنة الخليفة المتوكل على الله ، وبعث يليغا الناصرى بهذا الإعلان إلى نواب القلاع  
الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأييدهم له (٦) .

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط فى سياسته ، فلم  
تكد تمضى عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة فى ٥ من ربيع الأول  
سنة ٧٩١ هـ (٧) حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانة وأصحابه

- 
- (١) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦ .
  - (٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ
  - (٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٠ .
  - (٤) السقلافي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ .
  - (٥) ابن تفرى يردى : النجوم ج ١١ ص ٢٥٩ .
  - (٦) العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦ .
  - (٧) الهيشى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ ب .

من الدخول إليه . ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ؛ أنه خشي أن يرسل الناصري إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته (١) . ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خصاصه في خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهر الناصري فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان (٢) ، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى . ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف (٣) ، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته (٤) .

وفي العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ يونيو سنة ١٣٨٩ م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية - فيما عدا قلعة دمشق وبعليك والكرك - في طاعة بليغا الناصري . وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولي بن دلفادر التركاني ونعيم بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركا بليغا الناصري ومنطاش في الدعوة إلى نصر الخليفة (٥) ، ولم يجد السلطان برقوق بداً من تجريد عدد من أمرائه، ساروا في خمسمائة من مماليكه لقتال الناصري (٦) . غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان في سورية؛ ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور في العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة . وفي ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ (٧) رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسي ، وأغدى السلطان برقوق عليهم الكثير من التفقات . وبرغم أن العساكر خرجت في تجميل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لذهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس .

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلي أمير آخور السلطان على نائبيها الأمير ابغا الصفوى التركي وسجنه بالكرك ، وأقر في نيابة

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ .

(٢) السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ ب .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٥) السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ - آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٧) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧١ .

غزة الأمير حسام الدين بن باكيش (١) . ثم تشجع جاركس وتقدم شمالاً ، وهناك أعلن قرا محمد التركاني رغبته في الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه في محاربة الناصري . وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب في تدخل التركان أو صاحب ماردين في هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذهم في سورية ، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والتناء ، وأنه « ادخرهم لما هو أهم من ذلك » (٢) . ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فقتلوا نائبيها حسام الدين طرنتاي ، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم في نزعة عسكرية فأقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا بالهلو والخنو فيها حتى « ستمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقية فيهم وفي مرسلهم » (٣) .

وانتهز يلغا الناصري ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجرتهم في دمشق وتقدما بالممالك الترك في ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليوس سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق . فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة (٤) ، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه . ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع ، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك ، بيد أن يلغا الناصري عاد فجأة واقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلغا الزيني الأعور من قتل الأمير جاركس الخليلي أهم قائد في جيش السلطان برقوق (٥) .

ولاشك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفراداه نحو الخمسمائة ، كان الترك يعدون بالآلاف فضلاً عن انضم إليهم من التركان والعرب (٦) . واستطاع يلغا الناصري بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش الجبجاسي وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة في قلعة دمشق (٧) .

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية ، أولاهما

- 
- (١) المسقلاني : إنباء القمر ج ١ ص ٢٧٧ .
  - (٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٣٧ .
  - (٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧١ .
  - (٤) برزة : قرية من غوطة دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٤ .
  - (٥) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ٣٧ .
  - (٦) ابن خلدون : العبر وديوان المتبذ وألبر ج ٥ ص ٤٨٥ .
  - (٧) السيوطي : تاريخ الأشراف قايتباي ورقة ٢٧ أ .

أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق ، وثانيتها اضطراب الأحوال الداخلية في مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطاني على هذا النحو ، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق في وقت انتشر فيه الطاعون (١) . وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمناقشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر في التجربة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى ، واففقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لاقتل عن ألف وأربعمائة مملوك (٢) .

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجربة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق ، وأن اينال اليوسفى اضطرب لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى . وتقدم الترك معهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة (٣) . ولم تكن لدى السلطان في هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويخلفهم على الموالاة وإسداء النصيح ، كما أظهر احترامه الزائد للخليفة ، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التي قطعت من قبل (٤) .

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان في معركة دمشق - التي عرفت بمعركة الخمصائة - (٥) كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جاركس الخليلي ، ويونس الدوادار (٦) ؛ وتخرج مركزه وخشي انتقام العامة ؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها ، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب في شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخونى النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى في الناس « أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وإنا قد سألنا العدو الباغى في الصلح فأبى وقد قوى أمره ، فأغلقوا دوركم ، وأقيموا الدروب على الحارات ، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم (٧) » . غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة في اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق ، لأن السلطان عاد فعدل

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .

(٤) نفس المرجع ورقة ٢٠ ب ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٠٤ .

(٥) عرفت بمعركة الخمصائة لأن السلطان قاتل فيها بمخمائة من العساكر - راجع

ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ .

(٦) انظر السيوطى : تاريخ الأشراف قايتهى ورقة ٢٧ أ .

(٧) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩-٢٧٠ .



عن قراره وألزم مباشرة جهات المكس بمطالبة الباعة بمكس ما يبيع (١) ، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات (٢) . والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال ، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا في الهروب من القاهرة والانضمام لجيش الناصري والعمل على التخلص من حكم برقوق . أما من بقي من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آتخذ سوى « عمل الدروب وجمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار » (٣) « في وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يشعرون من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم .

ولزاء هذا الشعور الذي لمسه السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين في كفاحه مع الترك بعرب هواراة وعرب الوجه البحري (٤) ، واعتمد على مماليكه في حفر خندق حول القلعة ، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل ، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأقوات والمخاليق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار ، ثم أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار . وبعد أن تمت استعداداته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة (٥) .

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق في هذه الآونة إذ تباع هذه الاستعدادات بسوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان ، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فتودى « بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر » (٦) . أما باقي آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بشن مرتفع جداً (٧) . وبرغم ما أنفقته السلطان برقوق على مماليكه من المال والخيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به ، حتى أخذ يعرض مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء ، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبي ، كما أعطى الأمير إقبغا المارديني حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥١٢ .

(٢) المسقلى : إنباء النمر ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٠ .

(٤) المسقلى : إنباء النمر ج ١ ص ٢٧٧ .

(٥) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٣ .

(٧) نفس المرجع والجزء والصفحة .

على قول ابن تغرى بردى : « مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب ، ثم بطل الحكم في القاهرة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار » (١) ، والخلاصة أن الأحوال ساءت في داخل القاهرة ولم يتقذ برقوق من ثورة العامة عليه سوى انتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم (٢) .

أما يلبغا الناصرى فإنه سار من غزة إلى قطية (٣) في ٢٨ من جمادى الأولى سنة ٨٧٩١م (أغسطس سنة ١٣٨٩ م) وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصرى بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه (٤) . وفي قطية وجد الناصرى بعض جواسيس برقوق فعاقبهم (٥) ، ثم ما كاد خبر وصول الناصرى إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه ، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنذ من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصرى على موقف السلطان برقوق السيئ مما شجع الناصرى ودفعه إلى التقدم بسرعة نحو القاهرة . وحين وصل يلبغا الصالحية ، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العائد لكل معونة سواء من المال أو الرجال ، وسار يلبغا الناصرى بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة (٦) .

أما السلطان برقوق ، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة ، أمر فددت الكتوسات الحربية ، ثم ركب مع الخليفة في مقدمة العساكر ، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه بيكانه حتى إنهم بكروا إشفافاً لحاله (٧) .

وعندما أشرف الناصرى على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة ، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة ؛ بسبب فرار

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .

(٣) قطية قرية في الطريق بين مصر والشام قرب القرما وكان بها مكان أخذ المكس من

الوافدين على مصر . راجع رمزي : القاموس الجغرافى ص ٤٢ .

(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٧ .

(٧) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥١٣ . (مخطوطة)

والإها حسام الدين بن الكوراني واختفائه خوفاً من انتقام الزعر ، الذين انتشروا ينهاون في أنحاء المدينة .

والواقع ، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجيء عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة ، حتى إن من بقي معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يلبغا الناصري برغم ما أنفقته السلطان عليهم (١) . ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذي دفع السلطان إلى إغلاقه ، وبهذا أصبح محصوراً في داخل القاهرة . وزاد في ضعف مركز السلطان برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بمنزلة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم ، وكسروا أبواب الحبس ، وخرجوا ليعيثوا في القاهرة فساداً . ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق في منع العامة من التوجه إلى الناصري بل إن العامة رجموهم بالحجارة ، واضطرت الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمي العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلي مرير (٢) .

وفي يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩م أقيمت طليعة الناصري « كأنها الموت الأحمر » (٣) مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه ، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان في جماعة كبيرة ، وأخذ في قتالهم وعاونوه المماليك الذين في القلعة بالهجوم على الترك بالمدايع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليح وهم يكررون ويفرون . والواقع أن باقي الجراكسة ثبتوا ثابتاً راسخاً ، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصري وخطورة موقفهم بدءوا في التسلل للانضمام إليه (٤) ، حتى إن السلطان برقوق شس وعرض على من بقي معه من الأمراء أن يسلم نفسه (٥) ، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم ولا يموتون إلا على ظهور خيولهم (٦) ، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهري أحد كبار الأمراء الجراكسة المنتحسين ، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته ، أرسل النجاة إلى الناصري وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته ، فكتب له الناصري أماناً .

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .

(٢) نفس المرجع ورقة ٢١ ب ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٣ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ ب .

(٤) المقرئى . السلوك ج ٣ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٥) السلاوى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ ب .

(٦) الميى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣ .

والظاهر أن الناصري حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين ، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصري<sup>٢</sup> من قبل مع كثرة أخطائه ، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصري للانتقام الجواكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصري حاملي الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تحمد الفتنة ويدبر له أمراً (١) .

وهكذا اختفى السلطان برقوق ، ودخل الناصري وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله في قبة النصر (٢) ، وأخذوا على الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم . على أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعاني أشد أنواع الاضطراب ؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركان من أصحاب يلبغا الناصري في الهجوم على بيوت الأمراء وحواصلهم ونهبوا وتخريبها . ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة - مع ما بذلوه في المقاومة والدفاع - من النهب والسلب . ونهب الترك والتركان الاصطبل السلطاني ؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل : لأنهم نهبوا ألفين ومائتي إردب شعيراً ، ونهبوا من الدراهم مائتي ألف درهم (٣) ، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم . وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصري عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والي البهنسا واليا على القاهرة (٤) ، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح ، ودخل جامع الحاكم ، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصري ، وطلب منهم أن يمتنعوا عن النهب ، غير أن نداءه لم يكن مجدياً إذ استمر الترك في النهب وقتال العامة حتى اضطرب الناصري إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبي بكر أمير حاجب ، وتنكر يلبغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر ، فأمر فنودى بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئاً فلا يلومن إلا نفسه ، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال» (٥) .

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذي حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة في وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة . ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصري ومنطاش الأشرفي إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاون والعمل على

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ أ .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٥) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

إعادة الترك إلى مراكزهم التى أقصاهم عنها برقوق ، فاجتمع الناصرى بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة ، ونصب للخليفة خيمة عظيمة ، وللقضاة أخرى ، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق . ورغم أنهم أجمعوا على سلطة الناصرى باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك ، فإن الناصرى امتنع عن ذلك أشد الامتناع ، ذلك أنه أدرك أن سلطته ستواجه حملات المماليك الأشرية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة . ولهذا استقر رأى على إعادة الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشراف شعبان إلى السلطنة . فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك (١) فى يوم ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ .

وهكذا خلع السلطان الظاهر برقوق الذى استطاع أن يرتقى من صفوف الجنود إلى وظيفة أمير أخور دفعة واحدة ، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها ، وظل يشغلها حوالي خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاون وأكثر من شراء المماليك من العنصر الجركمى حتى بلغ ما اشتراه فى هذه الفترة منهم نحو ألفى مملوك (٢) ، قدمهم على الترك والروم (٣) ، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاون .

وامتاز برقوق فى سلطنته الأولى التى استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالحزم والمهية وحبه لأهل الخير والعلم ، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام إليه ، على حين لم يعرف أحد قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه ، وقلماء كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده ، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية (٤) بين القصرين . غير أنه يؤخذ على سياسته فى هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية فى وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها ، حتى أصبح لا يصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال . ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» (٥) مما عجل بنهاية حكمه .

دعى أمير حاجى فى سلطنته الثانية بالسبطان المنصور وتقدم الأمراء على عاتقهم

(١) ابن تفرى بردى : مورد الطاقة ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٣) ابن تفرى بردى : مورد الطاقة ص ٩٨ .

(٤) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٦ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٩١ .

وقبلوا الأرض بين يديه ، ودقت الكوسات وهو فى طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه (١) . ومن الطبيعى ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصرى منصب الأتابكية ، وسكن الاصطبل السلطانى ، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس .

وبدأ الأمير يلبغا الناصرى فى تنظيم الأمور الداخلية ، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان . وعين من يطمئن إليه من الأمراء فى خدمته (٢) ، وكتب مرسوماً على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها ، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس ، ثم عين الناصرى من الترك نواباً فى الشام ، وأمهرهم بالتوجه فوراً إلى نياباتهم (٣) . غير أن الأمير يلبغا الناصرى لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة ، فأخذ فى تتبعهم وأمر بأن ينادى فى القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على إقطاعه ومن اختفى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان» (٤) ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم ، أو سجنهم ، أو توزيعهم على أمراء سوريا (٥) .

غير أن الأيام القليلة التى حكمها الناصرى أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره ، وحملت سياسة الناصرى فى ثنائها العوامل التى عجلت بحكم الترك ، وأول هذه العوامل أن الناصرى أبى على عدد من الجراكسة الذين أطمأن إليهم ، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص ، وثانيهما أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم ، ذلك أن الأشرافية اختلفوا مع اليلغاوية وقامت بينهم الشحنة بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التى انتقلت إليهم نتيجة نفي عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم (٦) ، ثم إن حالة العنف والتهديد التى دأب عليها الناصرى مع العامة مع عجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرفات دون أن ييروا أحد على منعهم ، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصرى ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التى أبطلها الظاهر برقوق ، أدر كنا

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٣ أ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٥ .

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٢٠ .

(٥) راجع العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨ .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٣٢٦ .

سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه» (١) .  
 وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصري أنه عاد يحنث أن يؤدي اختفاء السلطان  
 برقوق إلى ثورة داخلية ، ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه ، وخصص مكافأة  
 لمن يثر عليه ، وهدد من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك — كان والى القاهرة  
 السابق قد عاقبها — أنه في بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا  
 الجوباني لاعتقاله . والواقع أن شخصية برقوق كانت جذيرة باحترام أعدائه حتى في  
 هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوباني أراد تقبيل يده  
 فاستنكر الطنبغا الجوباني هذا العمل ومنعه (٢) ، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه  
 وعم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبية في وسط النهار ، والواقع أيضا أن  
 سياسة الناصري غيرت شعور الناس سريعا نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصري ،  
 ومالوا إلى برقوق ، وبدا ندمهم على زوال حكمه واضحا ، فأخذوا ييكون ويدعون له  
 بالنصر على طول الطريق ، حتى صعد السلطان إلى الناصري في الاصطبل ، فأمر الناصري  
 باعتقاله في قاعة الفضة بالقلعة ، وهناك صعد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام  
 والشراب (٣) .

ثم عقد الناصري في ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩ م)  
 جلسة للمشاورة في شأن السلطان المزعول فانقسم الأمراء حياله فريقين ، نادى الفريق  
 الأول بقتله ، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش (٤) ، على حين نادى الفريق الثاني  
 بحبسه ، وصاحب هذه الفكرة هو الناصري الذي أخذ بها فيما يبدو لعاملين ، أولهما خوفه  
 من ثورة ممالك الذين أبى عليهم وضمهم إليه ، وثانيهما أن بقاء برقوق في  
 الحبس يجعله شجا في حلق منطاش إذا فكر منطاش في الثورة على يلبغا (٥) . ولهذا  
 أرسله الناصري إلى الكرك في ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ — سنة ١٣٨٩ م (٦) بعد أن  
 عين الأمير حسن الكجككي نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصري بالعناية بالسلطان برقوق  
 والحفاظة عليه ، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان  
 برقوق (٧) .

- 
- (١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ .
  - (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٧ .
  - (٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٤ أ .
  - (٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .
  - (٥) Muir : The Mamluk Dynasty p. 107
  - (٦) المسقاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .
  - (٧) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٣٧٧ .

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوباني وثلاثة من صغار مماليكه . وأنزل حسن الكجكيني السلطان برقوق بقاعة النحاس في قلعة الكرك، وجعل في خدمته ابنة أستاذه يلبيغا العمرى الكبير ، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المزعول عن نيابة الكرك « فصارت تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملوثة » (١) .

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن الجراكسة ، وبالتالي يمكنه من إعادة نفوذ الترك . فأقدم على خطوة خبيثة إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقى منهم بمصر بسفك دمه (٢) . وأدت هذه الحركة إلى الخط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولا سيما أن يلبيغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا في خدمة السلطان حاجي ، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة (٣) .

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن في مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتت الجراكسة في سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش ، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفى إلى مماليكه في سوريا لمعاونه على إعادة سلطته . وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعيبتهم (٤) .

وثمة عامل هام — يتعلق بسياسة الناصرى — أدى إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته في القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى أقام في جامع السلطان حسن (٥) ، كما رفع يلبيغا الناصرى شأن أمراه دون غيرهم حين وزع المثلثات (٦) عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة

---

(١) السلاى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٥ أ ، ب .

(٤) ابن تفرى يردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٢٩ .

(٥) Ency. OF Islam, Art Barkuk.

(٦) المثلثات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندي أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقيالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت ل راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٨٧ .



وعشرين مقصورة عليهم ، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر في المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة : بأن من ظلم من مدة عشرين سنة فعليه باب الأمير الكبير يلبغا الناصرى ليأخذ حقه (١) . وانعكس أثر هذه السياسة في نفس منطاش وفي نفوس أتباعه الذين بدعوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصرى وأمراته ، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوباني وحضوره مائتته بعد أن أفرج الناصرى عن الجوباني وأصبح أمير مجلس (٢) . ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه . وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصرى وبين منطاش في ١٦ من شعبان سنة ٧٩١ هـ - (سنة ١٣٨٩ م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض . وفطن الناصرى إلى مكيدة منطاش فلم يتوجه لعيادته ، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوباني . ولكن منطاش بدا غيبا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوباني وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف .

وهكذا بدا كأنما الأحوال تخدع السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك ، إذ ركب منطاش في أصحابه ومن انضم إليه من مماليك برقوق البحر اكسة الدين نعموا على الناصرى ، لأنه لم يف بوعده لهم بل لأنه شرد لإخوانهم (٣) . واتجه منطاش في ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١ هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩ م إلى باب السلسلة بعد أن نهب ما في الاصطبل من الخيول . غير أنه تعلل عليه اقتحام الباب ومباغنة الناصرى بسبب إغلاق مماليك الناصرى الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة ، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته في مدرسة السلطان حسن (٤) . وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المثلثتين ومن حول القبة . والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصرى بسبب انضمام العامة إليه ، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصرى وأصحابه عليهم (٥) .

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكوراني الذي أعيد والياً على القاهرة في القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية . وبرغم نذاته في الناس بنهب مماليك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم ، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف

(١) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٧ .

(٣) ابن دقاق : الجوهر الثمين (النسخة الخطية) ج ٢ ورقة ١٣ أ .

(٤) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٢ .

(٥) السلاى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .

جانب الناصري . وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف ، إذ أرسل منطاش جماعة قاتلوا من حضر لهذا العمل (١) . وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكورافى الذى عينه منطاش والياً على القاهرة وألزمه بجمع الشباب ، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً ، ثم نادى فى القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر ، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس (٢) .

وعند ما رأى الناصري ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يـأله فى الصلح حتى تخمد الفتنة (٣) . غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة ، كما أكد طاعته للسلطان حاجي ، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصري . وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصري من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ ، ثم ذكر أن الناصري حلف له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر ، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه ، وقرب خشداشيته اليلبغاوية وأبعده وخشدا شيته الأشرقية ، وتمادى فى إهماله لشأنه والحط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه (٤) ، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم ، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال ، وأعطى الناصري نفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات ، ولمنطاش أصغرها وأضعفها . ثم جعل منطاش تبعاً ذلك كله فى علق السلطان الصغير (٥) .

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصري والرضوخ للصلح ، كأن مصلحة البلاد لم تكن مهمة بالنسبة هؤلاء المتنازعين . وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة . ولعبت الحياة دورها بين الترك اليلبغاوية ، إذ خرج على الناصري عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من الممالك الجراكسة الذين خدعهم ، وانضموا إلى منطاش مما أنلر بهزيمة الناصري . وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش ، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله : « أنا واحد منكم » (٦) ، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى

- 
- (١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٦ أ .
  - (٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٤ .
  - (٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٥ .
  - (٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٤٨ .
  - (٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٦ أ .
  - (٦) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٤٠ .

جمع النشاب والحجارة من على الأرض وحملها إلى منطاش . وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسي أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته ، فاعتذر ابن الطرابلسي له حتى عفا عنه ، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر آلات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهرية وصار يرمي على حيث جلس الناصري ، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة ، ففر السلطان حاجي من الخيمة إلى مكان آخر ، وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصري إلى منطاش (١) .

وهكذا فشل الناصري في سياسته ، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك ، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك وأضحاً نتيجة للمطامع الشخصية ، وبدا جانب الناصري ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطاني ، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصري وخزائنه (٢) . ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجي وأعلمه أنه في طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من ممالك أيه الأشرف شعبان . وخدع السلطان بهذا القول وأعان ابتهاجه لهذه النتيجة ، خاصة بسبب تضييق أتباع يلبيغا عليه (٣) ، ثم أقر السلطان حاجي الأمير منطاش أتابكاً للعساكر في رمضان سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م .

وتتبع منطاش يلبيغا الناصري حتى تمكن من القبض عليه بسرياقوس ثم أمر به بقتيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه .

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبيغا الناصري أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق في الوقت المناسب ، وبهذا أصبح يواجه عدوين في وقت واحد ، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة .

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد لحظاً من يلبيغا الناصري ؛ ذلك أنه أنفق جهده في تتبع أصحاب الناصري والقبض عليهم ، وتحريض أتباعه على الانشقاق منهم ثم إنه لم يجهز أن تزوج من أخت السلطان المنصور حاجي (٤) رغبة في تأييد مركزه ، إذ سرعان ما شعر بخرج موقفه أمام الجراكسة الذين حنّ بعدهم معهم في إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصري ، وحين وزع الإقطاعات على ممالك الجراكسة

---

(١) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقه ٢٦ أ .

(٢) ابن خلدون : البربر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٨ .

(٣) ابن تقي الدين : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٠ .

(٤) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازاً قليل المثل لعظم ما فيه من الجواهر والقصص والذهب والقماش المختلفة الألوان ، وحمل جهازها على خمسمائة جمل - راجع إنباء العمر ج ١ ص ٢٨٨ .

وأخذ يقرب خشد اشبته وماليكه وأولاد الناس ، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم - بإمرة أو إقطاع ، مما أوغر صدورهم عليه (١) . وإذا أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترصاهم ، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم ، (٢) وبعد أن أخذ خيولهم قيديهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل (٣) .

وجاءت هذه الحادثة ضغناً على إيالة بالنسبة للسلطنة التركية ، إذ بدأ الجراكسة يتكثرون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى فى الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم .

ثم شغل منطاش فى تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق فى إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكوراني والياً على القاهرة لإجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر (٤) .

أمام هذا التكتل الجركسى أرسل منطاش يستدعى المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات (٥) . غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال فى القاهرة وبرغم وجود الحفر فى شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءاً . بل إن حوادث أخرى أُنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه ، وأهم هذه الحوادث اضطراب أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعيم الدين مهنا مع سوى بن الغادر الأمير التركمانى ونهبهما حلب ، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق ، وحرّض نواب سورية على مؤازرته فى ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلغا الناصرى (٦) .

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك فى سورية دبر مقتل السلطان برقوق سراً ، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكئى نائب الكرك ، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق ، ولكن حسن الكجكئى لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش ، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٥٠ - ٥٥١ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٧ أ .

(٤) نفس المرجع ورقة ٢٧ ، ٢٨ ب .

(٥) ابن تفرى يردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٣ .

(٦) ابن خلّون : البر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٨ .

برقوق دون إذن كتابي من السلطان والخليفة . وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برفوق فإن حسن الكجكني ماطل الشهاب البريدي وأثره في قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برفوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله ، وحلف حسن الكجكني لبرقوق بالأيام المغلفة ألا يفعل به شيئاً (١) . وحين أيقن الشهاب البريدي بأن الكجكني يماطل في قتل برفوق ، عزم على العودة ، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضي الكرك الجميلة (٢) ، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برفوق . ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة الشهاب ، فاجئوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برفوق ، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين : « دس برجلك على عدوك » (٣) .

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكني عزم على إطلاق سراح السلطان برفوق حسب اتفاقه مع الناصري ، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصري ، ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل في تنفيذ كتاب الناصري وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة (٤) .

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة ؛ إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برفوق في ٩ من رمضان سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م وبدأ السلطان برفوق حكمه بتحصين الكرك (٥) ، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم في الكرك فأمرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر ، وأقاموا خارج الكرك ، كما أيده في حركته عرب بني عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذي قدم له الخيل والمال . وهكذا أصبح لبرقوق جيش في فترة وجيزة ، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق . ويبدو أن بعض أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيري قاضي الكرك ، واتفقوا على القبض على السلطان برفوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا لإجماع السفهاء ، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا

(١) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٧ ب .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٤١ ، الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٨ أ .

(٥) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٨ .

القاضي فأغلق باب المدينة (١). ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين، أحد إخوة القاضي المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضروا لنصرته خارج الكرك (٢). وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق. وفي شجب إحدى قرى دمشق - تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخى طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهم من الخيل والسلاح والقمعاش. وبرغم أن ما استولى عليه برقوق شيء كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال، ولذا تذرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير لئال اليوسفي البحر كسى والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتي مملوك (٣) من البحر اكسة مستعدين بالسلاح، كما وصل إليه مملوكه كشيفا الحموي يجنده من حلب، وقدم له خيلاً وإبلًا وكثيراً من آلات الحصار، وهكذا أعانه كل هؤلاء في التقدم لحصار دمشق (٤).

وعند الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الخيل الحربية والزمن للاستعداد لفتل منطاش، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع في قبضة العرب (٥). فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة آلاف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش في إنفاق جهده في الانتقام من البحر اكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة. وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة البحر كسية في قوص الأمير مبارك شاه، نائب الوجه القبلى، الذى استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلى عاونوه في تشتيت التجريدة التى أرسلها منطاش لمحاربة البحر اكسة الفارين.. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره في شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التى اندلعت في الصعيد كله، على حين ازداد عدد المماليك البحر اكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق (٦). ولذا تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق، وجد منطاش نفسه في موقف لا يحسد عليه، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجى. غير

(١) السقلاوى : إنباء الفجر ج ١ ص ١٨٤ - رفع الإصر عن قضاة مصر : ص ٩٢ .

(٢) ابن تفرى بردى : التنجيم الزاهرة : ج ١١ ص ٣٥٢ .

(٣) ابن خلدون : البر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩١ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت

ص ٢٤٧ .

(٥) الببى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٦٤ .

(٦) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٩ أ .

أن المال شكل عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لأنه كان على قول العسقلاني «نهايا وهابا» (١) . ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام ، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه . وطلب البابا ماثؤس الأول سنة ١٣٧٨ - ١٤٠٨ م البطريك السابع والثمانين في عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه . وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول (٢) . ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشقى الطرق ، فقرر على الممالك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعى الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه (٣) . وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للالتفاف بها في الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها (٤) .

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعى الإنشاء والممالك البحرية ، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان البلد حين قبض على عدد كبير منهم وأئزمهم بدفع أموال كثيرة ليتمكن سد نفقات الحرب (٥) . والخلاصة أن البلاد تعرضت لحالة سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة عن انتصار الظاهر برقوق أو انهزاه .

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا في أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان ، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله في الشهر الحرام ، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التي حرم الله قتلها ، ولذا وجب قتاله (٦) .

وعباً منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق ، ثم قسم قواته ، وجعل قوة لحراسة القلعة ، وقوة لحراسة القاهرة ، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذا إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية . ولكن منطاش وقع في خطأ

(١) العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٢) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ٧٣ أ .

(٣) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ ب .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٧٣ .

(٥) الخطيب نزعة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ أ .

(٦) نفس المرجع ورقة ٢٩ أ ، ب .

جسيم حين قبض على عدد كبير من ممالك يلبغا وسجنهم . كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته . وفي ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩ م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان والخليفة والقضاة وترك الأمير تكا الأشرف نائباً للغبية بالقاهرة في أسوأ الظروف ، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة في كل مكان، حتى في المدارس والمساجد (١) .

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشى أن يهاجمه من الخلف . وإذا أطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كشيغا الحموي نائب حلب له (٢) ، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان للملاقاة منطاش في شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفاً بأربعة آلاف فارس فقط (٣) . واعتمدت هذه الخطة على عاملين ، أولهما : تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة ، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجي ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش ، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية ، وفي الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن ييده إعلان شرعية السلطنة (٤) . ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين ، وتولى هو قيادة الميمنة . وحين التقى الفريقان في ١٤ من المحرم سنة ٧٩٢ هـ - سنة ١٣٩٠ م هزمت ميسرة الظاهر ، وانسحب كشيغا الحموي نائب حلب عائداً إلى بلاده ، وعاد حسن الكجككي إلى الكرك . غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجبياً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة (٥) حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجي والخليفة المتوكل والقضاة ، واستحوذ على ما معهم من الخزائن والسخيرة التي وصفها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة (٦) . وعمد الظاهر برقوق إلى دهاته المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش ؛ إذ تطف بالسلطان حاجي والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره . وحين رأى عسكر منطاش

(١) الخطيب : نزه النفوس والأبدان ورقة ٣١ ب .

(٢) البني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠ .

(٣) Iorga : Notes & Extraits TII. P.534

(٤) Iorga . Op. Cit. TIIp.534

(٥) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠ .

(٦) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ ، ابن تغري بردي النجوم ج ١١ ص ٣٦٧-٣٦٨ .



انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدعوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان .  
برقوق ، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك .

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق في اليوم التالي نحو دمشق التي فتحت أبوابها لمنطاش  
الذي تقهرق إليها ليحتمى بها . واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى  
غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا  
القتال طيلة الليل ، ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكتل من الثلج  
على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها (١) .

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشبغا الحموى نائب حلب ، وبعد  
أن استولى إينال اليوسفي على قلعة صفد ، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين  
تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الحرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم يهبطون  
البضائع من بعض السوق (٢) ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من  
المعدات ما يكفي لحصار دمشق فإنه تقهرق إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف .

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام في شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاة  
وعرض كتاباً من السلطان حاجي ذكر فيه رغبته في التخلي عن السلطنة لعجزه عنها (٣) .  
وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجي يتخلع نفسه من السلطنة ، وحكم بذلك القضاة  
ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة (٤) . وبعد هذه البيعة التي عرفت  
ببيعة شقحب (٥) . خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة ، ونودي بذلك في العسكر .

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل ، ولهذا رأى السلطان برقوق  
أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التي أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة  
وذلك لعدة عوامل : أولاً : أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب  
إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعيم (٦) ، وثانياً أن الأحوال الاقتصادية في  
سوريا ساءت حتى عدت الأقوات وغلاتها حتى بيعت بالبساطة بخمسة دراهم ،

---

(١) السلاوي : مختصر التواريخ وورقه ٨٥ ب .

(٢) كرد علي : غلط الشام ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ، ص ٤٩٢-٤٩٣ .

(٤) ابن أبي السور : اللزعة الزهية وورقه ٢٦ أ .

(٥) ابن تقي بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٦) Iorga : Op. Cit. T11 , p.535

وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة مانهب (١) وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة ، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار ممالك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعامة مملوكه الأمير بطا الظاهري وعددهم نحو ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم ممالك يلبغا الناصري رغبة في الانتقام لاستزادهم. واتجه الثوار إلى سجوق القاهرة التي أودع فيها منطاش عدداً كبيراً من الجراكسة فأخرجوا من "فيها" ، ثم سار الثوار إلى "بيوت الأمراء المتطاشية ونهبوها (٢) . وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطاني ، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته (٣).

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطية أن يحفظ الطرقات ، تقدم بمن معه من الممالك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التي فشلت فيها الدعايات السيئة التي بها ضده ابن الكوراني وإلى القاهرة ؛ إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق ، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام ، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة في مقاومة أنصار منطاش وإلى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء (٤). ويعجب ابن تغري بردي من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة في أمن من الزعر وفسادهم (٥) . ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهري بعد أن قبض على ابن الكوراني ، وصفده بقيد من حديد ، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلي والياً على القاهرة . وأسرع الوالي الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق (٦) . وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق ، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته ، فإن بطا قضى على ما بقي من مقاومة الترك الأشرفية ، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة ، وسقطت القلعة في يده فتمكن بطا من إعادة مقررات الممالك الجراكسة من اللحم وغيره مما كان مقررًا للممالك الترك (٧) . وبدأ بطا في إقامة الكثير من الاستحكامات حتى

- 
- (١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٩ .
  - البيبي : عقد الجمان : ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٨٥ .
  - (٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٥٢ .
  - (٣) المسلكاني : إنباء النمر ج ١ ص ٣٠١ .
  - (٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٢ ب .
  - (٥) ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٣٧٥ .
  - (٦) المرجع السابق ورقة ٣٣ أ ، ب .
  - (٧) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٥٢ .

يلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد في نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة (١) .

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر في العاشر من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م فأمر بطا الظاهرى بقد البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه (٢) . فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولبن معه (٣) .

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى نودى بزينة القاهرة وبلغ سرور الناس أشده حتى تنافسوا في إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجا للقائه فرحين « مقدرين فيه عقله وتنبئه » (٤) . وليس من شك في أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق وبلغا الناصري ومتطاش . وظهر واضحا أنهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الأخيرين ، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظرا لسياسة الشعبية .

ويصور لنا المقرئى استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس بتصويراً حياً وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول : « في ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها . والساكر بلبوسها الحربية ، واليهود بالتوراة ، والناصرى بالإنجيل ، ومهمهم شموع كثيرة مشعلة (٥) ، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساءهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شيء زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقيه وأحاطوا به . وقد فرشت الشقق بالحريز من التراب إلى باب السلسلة ، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها ، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور ، فوقع هذا من الناس موقعا عظيما ، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهاج لتواضعه مع المنصور في حالة غلبته وقهره له ، وأنه معه أسير ، وعد هذا من فضائله . وصارت القبة والطير أيضا على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما ، وقضاة القضاة بين يدي الخليفة ، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبا العامة من غير أن يمنهم أحد ، وكانت العادة أن الشقق لجمدارية السلطان ، ولكنه قصد بذلك التحجب للعامة ، فإنه صاحب كيد ودهاء ، وكذلك لما نثر عليه

---

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٣١ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٣٧٨-٣٧٩ .

(٤) المستقلاني : الدرر الكابته ج ٤ ص ٣٦٥ .

(٥) راجع كذلك يوساب : تاريخ البطارقة ورقة ٣٩ .

الذهب والفضة تناهبه العامة ، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور ، وهو راكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأثرله . فحسن هذا منه إلى الغاية . وأخذ في المبالغة في تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم ، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه (١) .

ومما ذكره المقرئى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه ، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة في إكرام السلطان حاجى لينتظار بمدى زهده في السلطنة ، ولتتكشف أمامه انجهايات الناس نحو سلطنته ، حتى إذا تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم في الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة .

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة — ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذرهم من الترك ، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطانى ، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال (٢) . ثم أخذ السلطان برقوق في تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية في الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهرى دويداراً كبيراً ولينال اليوسفى أتابكا للعساكر (٣) .

---

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٣٨-٦٣٥ .

(٢) الخطيب : نزاه النفوس والأبدان ورقة ٣٣ ب .

(٣) العسقلانى : إنباء النمر ج ١ ص ٣٠٣ .

## الفصل الرابع

# استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك - الصلح بين برقوق وبلغيا  
النصارى - بقاء قوة الترك في دمشق واستماعتهم بالعربان -  
قضاء بلغيا على معظم المماليك الترك - عودة الحصار بين بلغيا  
النصارى وبرقوق - محاولة بلغيا النصارى انقاذ منطاش -  
ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١ م - القبض على  
بلغيا النصارى وقتله - فرار منطاش - عودة برقوق الى  
القاهرة - تطهير القاهرة من الترك - القبض على منطاش  
وقتله - معطالية العربان بالحكم دون الجراكسة - محاولة العربان  
اقامة الشريف المنابى سسلطانا سنة ١٣٩٤ م - موقف  
السلطان برقوق من باقى الثورات العربية - فشل ميداء ورائة  
العرش فى دولة المماليك الثانية - الصيغة الجديدة - التغيرات  
فى نظم الحكم والادارة .

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه في ١٤ من صفر سنة ٨٧٩٢ - يناير ١٣٩٠ م، وبدأ على عادته سياسياً عاقلاً، متوخياً الحرص، والثبات في كثير من أموره السياسية ولا سيما في علاقاته مع أعدائه، فهو أراد بناء دولة جديدة معتمداً على العصبية الجركسية (١) . ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية التركية التي حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء ، كما أن العصبية العربية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها ممثلة في عدد كبير من القبائل العربية التي اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة للحكم . وتحمس هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة، ولذا عمل السلطان برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابيه مع هاتين العصبيتين ، وذلك حتى يضمن الاستقرار لدولته.

---

(١) يتحدث ابن خلدون عن أهمية العصبية في قيام الدول فقال : « إن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتسامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ، ثم إن الملك منصب شريف ملووذ يشتمل على جميع الميزات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية » ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٤ .

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومخاربة الإشاعات المسببة للفرقة والافتقار في صفوف مماليكه ، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان (١) ، على حين أمر بالغفو عن الأمراء اليلغاوية الذين سجنهم منطاش ، مع تحديد أماكن إقامتهم (٢) . ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة ، بل إن الأحوال الداخلية اضطرتة إليها ، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م - وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق ، ونحريضه لقتلو بغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه - ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصاحبه ، ثم عينه أمير سلاح ، والطنبغا الجوباني اليلغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء (٣) . وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلغاوية في مناصبهم كسباً لودهم ، حتى إذا انتظمت أمورهم في العاصمة استغل عداوتهم لمنطاش في القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرقية الترك .

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة في القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة ، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلغاوية ، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم في القتال في سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرقية . ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلغاوية بإقطاعات في سورية (٤) ، ثم جعل الطنبغا الجوباني نائباً لدمشق ، والأمير قرادرداش الأحمدى اليلغاوى نائباً لطرابلس (٥) ، وبعثهما على رأس التجريدة ، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعاً ، وجعل مرجع الأمور كلها إليه ، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله « هو غريمك ، اعرف كيف تقاتله » (٦) .

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ - أبريل سنة ١٣٩٠ م - بدأ الحظ في جانب السلطان برقوق ؛ إذ خرج على منطاش حليفه قتلوبغا الصفوى ، وحضر إلى مصر طائفاً ، وجعل هذا العمل منطاش يشك في نيات أتباعه ، فقبض على عدد منهم وسجنهم ، مما دفع بعض المماليك الأشرقية إلى تركه والهروب

(١) المسقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) السلاي : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٦ .

(٤) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٣٤ ب .

(٥) ابن تغرى : الجوهر الثمين ، المجلد الثاني ورقة ١٥ أ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٩ .

إلى مصر للانضمام إلى جانب السلطان (١) . وبدأ جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من سبائة فارس ، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التي قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش (٢) ، وتوجه إلى بلدة النبك - بين دمشق وحمص (٣) - فتمكن الأمير إيتمش البيجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من البحر اكرسة . ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة ، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش ، إذ دخلوا دمشق دون قتال في آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ - أبريل سنة ١٣٩٠

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجئ صدى كبيراً في القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر ، وأتفق أموالاً كثيرة في الناس ، الذين شغلوا بالتسابق في إقامة الزينات (٤) . ثم نجحت عساكر السلطان برقوق في كسب جولة أخرى في سورية وذلك حين انتصر الأمير كشيغا الحموي اليلبغاوي نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرقي الذي استعان بأهل بانقوسا (٥) ، وحاصر كشيغا في قلعة حلب فأسرع كشيغا ونقب القلعة وقاتل الأشرقية بالماكل من الثقب حتى ضعف أمرهم ، وقبض كشيغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا ، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا (٦) .

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربي نعيم بن حيار أمير آل فضل ، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصري . فخرج يلبغا الناصري والطنبغا الجوباني من دمشق إلى سلمية ، وترك بدمشق الأمير إيتمش البيجاسي مع الحامية البحركية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية . غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية البحركية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة . وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق . ولما كان يلبغا الناصري حريصاً على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه ، فإنه ماكاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع في طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الايبغا العثماني ، حاجب حجاب دمشق ، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً أفنى فيه عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق (٧) .

(١) السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٥٥ .

(٣) راجع : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٤٧ .

(٤) القرينزي : السلوك ج ٣ ص ٦٤٤ .

(٥) كرد علي : خبط الشام ج ٢ ص ١٦٧ .

(٦) البهي : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٣٩٨ .

(٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٥ ب .

وبعد أن أعاد الأمير بلبغا الناصري الأمن إلى نصابه في دمشق عاد إلى سلمية (١) .  
في وجب سنة ٧٩٢ هـ - مايو سنة ١٣٩٠ م - ، واجتمع بباقي النواب لرسم خطة قتال  
منطاش وحليفه نعيم . واتفق في هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى  
يلبغا الناصري قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعيم بن حيار ، وأن يقوم الأميران  
قراد مرداش الأحمدى نائب طرابلس ، والطنبغا الجوباني نائب دمشق ، بقيادة  
الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش .

وحين بدأ القتال في شعبان سنة ٧٩٢ هـ - يونيو سنة ١٣٩٠ م - استطاع يلبغا الناصري  
أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعيم بن حيار ، أما قراد مرداش فإنه  
اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه ، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق  
بين ممالك منطاش وبين الفرقة التي قادها الجوباني . ورغم انتصار الجوباني في بادئ  
الأمر ، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوباني نفسه . وتأثر  
جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطر الناصري إلى التقهقر بجيش  
السلطان إلى دمشق ليصلح أمره (٢) .

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر  
ما تحمس في نفسه لنجاح فكرته ، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من  
الأجناد الترك . فاستدعى عدداً كبيراً من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا  
الناصري . واستطاع يلبغا أن يخرج بهم من دمشق في نهاية شعبان سنة ٧٩٢ هـ - يونيو  
سنة ١٣٩٠ م - وأن يهاجم عرب آل علي - على مقربة من دمشق - وقتل نحو مائتين  
منهم ، ونهب بيوتهم وجمالهم ، ثم عاد سريعاً إلى دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به  
منطاش (٣) .

وأدى هذا الانتصار مع توالي الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعيم طاعته للسلطان.  
وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان ، ولم يتأخر السلطان برقوق في إجابته إلى ماطلب ،  
وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته (٤) .

---

(١) سلمية بليدة من أعمال حماه راجع ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢  
حاشية ١ ص ١٥ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٤٩ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠ .

(٤) الخليل : نزعة النفوس والأبدان ورقة ٢٦ أ .



ولاشك أن منطاش فقد يخرج نعيم جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه ؛ إذ أصبح لا يخشى  
عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك ، ولذا اضطر منطاش إلى الارتقاء  
في أحضان سولي بن دلقادر التركاني وطلب معاونته (١) .

وفي ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣ هـ - يناير سنة ١٣٩١ م - لحق يلبغا الناصري إلى حيلة  
للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية . إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعدائه  
للأمير إيتمش البجاسي وللحامية الجركسية ، ونادى بلمشق « من كان من جهة منطاش  
فليحضر » وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان ، فانضم إليه نحو  
ألف ومائتي فارس منهم ، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم (٢) ، ثم خلع عدة الحرب  
وكتب بذلك إلى السلطان الذي أجابه بالشكر والثناء (٣) .

على أن منطاش لم ييئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه ، بل استعان بعدد كبير  
من عامة دمشق في مناوئة يلبغا الناصري ، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب .  
ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش (٤) .  
ونتيجة عن هذه الهزائم المتلاحقة خرج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى  
مصر طالعين (٥) . وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء ، بل إنه  
خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذي حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية (٦) .  
ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت في القضاء على أكثر المماليك  
الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية ، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم  
في هذه المعارك المتصلة ، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض  
يلبغا على منطاش وينتهي أمر الأشرفية ، ثم يتخلص من باقي اليلبغاوية ، إلا أنه انقلب  
فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجؤا إليه ، وعفا  
عنهم من وقت قصير ، في الوقت نفسه الذي قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوباني الذين  
عادوا إليه بعد قتل أستاذهم في المعركة التي دارت خارج دمشق في شعبان سنة ٧٩٢ هـ (٧) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقه ٤٠٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن خلّون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩٧ .

(٤) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق :

راجع المقرئزي : جنّ الأزهار من الروض المطار في عجائب الأقطار ورقة ٤٤ ب .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤٧ .

(٦) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٥٤ .

(٧) العسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٣١٦-٣١٧ .

وجعل هذا الانقلاب المفاجئ\* الأمير يلبغا الناصري يفهم نيات السلطان ، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء ؟!! وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركي وأنه لاشك عازم على التخلص من باقي اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرقية ، ولذا انقلب يلبغا الناصري بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق ، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية في سورية ، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد بعدم مقابلته في معركة حاسمة ، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر (١) .

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصري اتفق فعلاً مع منطاش ، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق ، وأنه لن يقف في طريقه على أن يظل هذا الأمر سرّاً بينهما ؛ فعاد منطاش من مرعش في أول رجب سنة ٧٩٣ هـ - يوليو سنة ١٣٩١ م - وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس (٢) . ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعليك واستولى عليها ، وفر نائب بعليك إلى دمشق حيث أخبر الناصري برحمت منطاش على دمشق (٣) . وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصري للقاء منطاش من الطريق الذي سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبداني (٤) . وبذا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذي تقدم إليها بمعاونة بعض ذوي النفوس الدنيئة من عامة دمشق الذين فتحو له باباً من وراء الجبل ، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرقية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق ، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها (٥) . ثم تمكن منطاش في النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق ، ونزل أمراؤه في البيوت المجاورة للقصر الأبلق ، واحتل باقي أتباعه جوامع المدينة .

وهكذا مكن يلبغا الناصري منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق . ولكي يداري يلبغا الناصري موقفه أمرع بالعودة إلى دمشق . ورغم أنه حاصر القصر الأبلق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار (٦) ، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصري للحضور واستلامه ؛ ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ ، وزينت له فإن يلبغا

(١) نفس المرجع وأجزاء ص ٣١٧-٣١٨ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٣) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٦٦ .

(٤) الزبداني قرية بين دمشق وبعليك راجع ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٤ .

(٥) كرد عل : خطط الشام ج ٢ ص ١٦٨ .

(٦) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ - ٦٦٧ .

الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره ، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه (١) .

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق ، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش ، وليشارك بنفسه فى الصراع الدائر (٢) .

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة ، بعد أن اطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عدد كبير من المماليك الترك . وبدوان الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل ، حتى أمر السلطان برقوق أن وينادى فى القاهرة ومصر ألا يركب أحد من للتعمين فرساً سوى الوزير وكاتب البر وناظر الخالص فقط ، ومن عداهم يركب البغال ، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه (٣) .

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى ، ووضح أمام السلطان برقوق خطربقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ - أغسطس سنة ١٣٩١ م ، وولى بدلاً منهم من مقلعى الحلقة الجراكسة (٤) . ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك الباطين بالقاهرة ، وأمر بضرب أعناقهم بالصحره (٥) وفى ٢٦ من شعبان سنة ٨٧٩٣ - أغسطس سنة ١٣٩١ م - أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش (٦) . وعهد السلطان إلى الأمير كشبغا الحموى بنبأبة الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وما كاد السلطان برقوق يرحل عن القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية (٧) ، وشدة متناهية قصد به

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) السقلافي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٥٧ - ٦٥٩ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦ - ٢٧ .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٥ .

(٧) من هذه الأحكام القاسية أن كشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٨٧٩٣ بمنع النساء فى يوم العيد من اللعاب إلى المقابر ، وأن من خرجت وسلطت هى والمكاري ، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب ، وألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام ، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مخالفة النساء فى سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً . ولم يحس أحد على مخالفة كشبغا . راجع السقلافي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٢٣ .

لإنزال الرعب في نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لا تحدث نفسها بالثورة . وبلغت شدة الأمير كمشيغا درجة لم يحسر معها أحد في مدة حكمه أن يحمل سلاحاً .

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق في ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣ هـ سبتمبر سنة ١٣٩١ م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصري فإنه أخفى ما في نفسه على من معه ، بل إنه أعلن في دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم ، وصار لهذا العفو أكبر الأثر في كسب عدد كبير من عامة دمشق (١) .

وفي الثاني من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بمحصر وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش (٢) ، الذي فر إلى سالم الدوكاري التركاني . ولا شك أن وجود السلطان برقوق في حلب كان له أكبر الأثر في إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على جماعة من المماليك الترك الأشرفية ، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته (٣) . كما أرسل إليه سالم الدوكاري يخبره أن الأمير منطاش في قبضته وأنه ينتظر من يسلمه . واعتقد السلطان برقوق أن سالمًا مخلص في قوله ، فأرسل إليه الأمير قرا دمر داش مع عدد من العسكر لإحضار منطاش . غير أن سالمًا الدوكاري عاد واتفق مع يلبغا الناصري على الإبقاء على منطاش فمطاش قرا دمر داش عدة أيام (٤) ، حتى أن قرا دمر داش حين يتحقق أن سالمًا الدوكاري لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه ، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٥) . وإذا عرف السلطان برقوق بمحاولة سالم الدوكاري ، أرسل إلى يلبغا الناصري يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له . ثم إن بعض الأخبار التي نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قرا دمر داش بسالم الدوكاري سل سيفه وأراد قتل قرا دمر داش لولا تدخل الأمراء (٦) .

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق بما أشيع عن اتفاق الناصري مع منطاش ،

(١) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٢) Iorga : Notes & Extraits T II p. 535

(٣) السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٩ .

(٤) السلاحي : مختصر التواريخ ورقة ٨٦ أ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٧٠ - سنجار مدينة مشهورة من فواحي الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام - راجع " ياقوت : معجم البلدان ص ١٤٤ .

(٦) السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٩ .

وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصرى من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش ، كما تحقق السلطان بما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا ، وأن يلبغا تحاذل في القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق (١) . كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتماعا في هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطة (٢) . وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش في كل ليلة بما يأمره به ، وأن سالما الدوكارى لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصرى (٣) . وأكثر من هذا فإن قراةمدش عثر عند سالم الدوكارى على خطاب من يلبغا الناصرى جاء فيه « خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجودا فنحن موجودين » (٤) وتحركت عند السلطان برقوق الكماثن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحسه بالكرك ، وما تسبب فيه من الفتن . ولم يجد السلطان برقوق مجالا للشك في نيات يلبغا حين سأل لإتمش الذى أرسله لتتبع الأشرية عن سبب عودته فجأة ، فأبلغه أن يلبغا الناصرى هو الذى أرسل إليه كتابا ليعود سريعا إلى دمشق (٥) . ولهذا انتظر السلطان برقوق في حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصرى يعلن فشله في مهمته قبض عليه ، وعلى أمير أخيرة ورأس نوبته ، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمرهم فقتلوا في ذى القعدة سنة ٧٩٣ ( نوفمبر سنة ١٣٩١ م ) (٦) .

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصرى يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة ، ولو لم يكن أكثر اليلغاوية قتلوا في هذه المعارك ، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك ؛ والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيرا على يلبغا الناصرى مع أنه تسبب في كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة (٧) ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم في هذه الحروب ، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش .

وفي ١٧ من المحرم سنة ٨٧٩٤ هـ - يناير سنة ١٣٩٢ م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة

- 
- (١) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٣ .
  - (٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٧١ .
  - (٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩ أ .
  - (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
  - (٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٦ ب .
  - (٦) ابن تترى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٢ - ٣٣ .
  - (٧) الميى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٤٣٦ .

التي استقبلته استقبالا رائعا إذ « تلقاه المسلمون بالحنان الشريفة واليهود بالتعرة والنصارى بالأنجيل والشموع الموقدة . وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس (١) واصطف الناس لرويته إلى أن طلع القلعة في موكب جليل إلى الغاية (٢) » .

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصري هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم ، فخلع الأمير استدمر الأشراف من ولايته في نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولى مكانه واحداً من مماليكه (٣) . ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم ، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة (٤) ، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة . ومن هؤلاء الذين ارتقوا في هذه الحركة ايمش البيجاسي الذي أصبح رأساً لثورة الأمراء . ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكه الأمير تنبك الحسني الظاهري المعروف بقم نائبا للمشق ، بعد أن تولى عليها نواب من الترك اليلبغاوية (٥) .

غير أن الأحوال في سورية عادت إلى الاضطراب في شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢ م — بسبب عودة منطاش إلى مزاوله نشاطه المعادي للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه — بعد أن فقد أنصاره من الترك الأشرافية — في إثارة بعض القبائل العربية وبعض التركمان ؛ ذلك أنه اتفق مع نعيم بن حيار الذي حنث بعهد الأخير مع السلطان ، ومع ابن بزدران التركاني وهاجم الجميع سلمية . غير أن الأمير العربي محمد بن قارا — الذي عين أميراً على آل فضل بدلا من نعيم — استطاع بمعاونة التركمان الموالين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش وإلحاق الأذى به ، كما قتل ابن بزدران واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثناء على جهوده في خدمة السلطنة المملوكية الثانية (٦) . وكما فشل هجوم منطاش على سلمية في شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢ م ، فشل هجمه بالاشتراك مع نعيم على حماة في الشهر التالي بسبب مقاومة نائبها الأمير أقيغا الصغير . وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقته أهلها درسا قاسيا ؛ فاضطر إلى الفرار إلى العراق (٧) .

- 
- (١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٩٥ .
  - (٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٥ .
  - (٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩ .
  - (٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
  - (٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٨ .
  - (٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٢٢ .
  - (٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٠ ب .

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت في ٣ من رمضان سنة ٧٩٥هـ - سبتمبر سنة ١٣٩٣ م على يد الأمير جليان الكمشيناوى البحر كسى نائب حلب (١) الذى استطاع الاتفاق مع نعيم بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتفى بنعيم ، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل . وأرسل الأمير جليان شادشر بخاناته في خمسة عشر مملوكاً ، وندب نعيم أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الحرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد ، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان (٢).

وحين بلغ السلطان النبأ سرله سروراً عظيماً ، وأنعم على جليان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه « فوقانيا بطر ز ذهب مزر كش » ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جليان بالخلع ، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة في اليوم التالي زينة عظيمة ، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله ، غير أن منطاش لم يعترف بشيء ، فلبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب ، ثم أخذه وعاد به إلى القاهرة ، وبعد أن طاف به شوارعها علّق الرأس على باب القلعة ، ثم نقل ليعلق أياها أخرى على باب زويلة (٣) .

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التي أثارها على الترك إزالة أهم عقبة اعترضته في سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية (٤) .

غير أنه ينبغي أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب ، بل ضد الجراكسة كذلك ، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسى من جيش برقوق في أيدي الترك فلأنهم جردوه من ملابسه ، وألقوه في السجن ، والعكس حين وقع في أيديهم مملوك تركى من جيش برقوق فلأنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراجه (٥) .

ومن المشكلات الداخلية التي واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات

---

Sauvaget, J : Noms Et Surnoms Des Mamlouks, J.R.A.S. (١)  
p. 47 ,Paris 1950.

(٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١ .

(٣) ابن دقاق : الجوهر الثمين المجلد الثاني ورقة ١٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ١٠٤ وما بعدها .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٦٤ .

العربان وهم الفلاحون والبدو (١) ، ومع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعى كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين ، نظراً لأنهم كانوا يؤدون خدمة حربية ويشتركون فى الجيش المملوكى بكتائب احتياطية ، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن فى البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة (٢) . وكانت العادة المملوكية القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منها ويكتب له تقليداً سلطانياً بذلك ، ويلبس الأمير المعين «تشرىفاً أطلس» أسوة بأقرانه فى الترتيب الإقطاعى (٣).

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت ثورات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج . أما عربان الشام فلأنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعمهم ضده . ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هواراة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد (٤) ، فإنهم لم يكفوا عن العصيان ، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وأمند عصيانهم حتى نواحى أسوان وأذعنتم لهم سائر العربان وصاروا طوع قياهم (٥) ، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى .

على أن أهم ثورات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابى (٦) سنة ٧٩٦هـ — ١٣٩٤م — أى فى السنة الثانية عشرة لحكم السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاريين حول الكرك بجنوب فلسطين (٧) .

وسبب هذه الثورة أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى

Piloti : l'Egypte Au Commencement Du XV siecle, (١)  
pp. 18—19,

Poliak ; Les Revoltes Populaires pp. 256—257. (٢)

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٤) المقرئى : البيان والإعراب ص ٦٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٩ .

(٦) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه بالكرك ، وأقضى هذا الشريف إلى السلطان بأمرار صحت عنده فيها بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته ، ورتب له فى كل شهر ألف درهم .

راجع ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ .

(٧) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شهابيل بالقاهرة هو وأقاربه وإخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه .

راجع نفس المصدر والجزء والصفحة .



ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالتزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك، وجاء في الكتاب أن الشريف العنابي اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافة في أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابي الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون في الخطة.

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابي وقع في يد علي بن الطيلاوي وإلى القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق (١) وأسرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابي وشريكه وعذبهما ليقرأ على من اشترك معهما في المؤامرة، فلم يعترفا بشيء سوى أنهما استعانا بطائفة من مماليك بركة الترك.

والخلاصة أن السلطان برقوق تخلص من هذه المؤامرة بأن ترك الشريف جمال الدين محمود العنابي وشريكه يقضيان نحبهما في العذاب الأليم (٢).

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحي بيا، واستولى على نحو خمسين من جيادهم، كما قبل في نفس الوقت عقد الصلح مع غير بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعيم إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ ودخل عند السلطان وفي رقبته منديل، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه في أمرته (٣).

ثم عاد عرب هواة يهددون السلطان برقوق في ربيع الآخر سنة ٧٨٩هـ - مارس سنة ١٣٩٦م - حين أرسل إليه على بن غريب أمير عرب هواة بمنع القود السنوي من العربان والخيل، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظي رأس نوبة، فقبض نوروز على بن غريب وأولاده وإخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم (٤). بيد أن عرب هواة حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قتلوبغا الطشتمري نائب الوجه القبلي، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا إليها إلى القرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة، وإزاء هذا ولى السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلي بالإضافة إلى وظيفته في ولاية منفوط، وأمره بالتوجه إلى أسوان، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الثوار (٥). وظل العربان يتناصبون

(١) العسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٣٦٦.

(٢) ابن قاضي شهابية : ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٠٠.

(٣) العسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٣٨٤.

(٤) ابن دقاق : الجواهر السنية ، المجلد الثاني ورقة ٢٣ أ

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ ب.

السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقناعهم سنة ٨٠١ هـ - سنة ١٣٩٩ م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين (١) .

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربي دفعه إلى استخدام العرب بالجنش (٢) . ودليل هذا ما ذكر عن استعانة برقوق بعرب هواه سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م (٣) ، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية في صد غارات تيمورلنك ، حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس ، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة ، وأسهمت باقي القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس (٤) .

وليس من شك في أن قوة السلطان برقوق وتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان .

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبيّة التركيّة ، وحدّ من نفوذ العربان وواجه كل هذه الحروب والفتن في شجاعة وقوة .

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التي صار لها أكبر الأثر في تدعيم كيان دولته ، ومن هذه الإصلاحات إبطاله الكثير من المكوس التي كانت عبئاً كبيراً على الناس (٥) . ثم إنّه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحري ، هذا الجسر الذي عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين . وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التي أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية ، وحتى تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية ، أي ناحية البحيزة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس في حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب . وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى

---

(١) المقرئى : السلوك ٣ - (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث

سنة ٨٠١ هـ .

(٢) Paliak : op. cit. p. 260.

(٣) راجع ماسبق بالفصل الثالث ص ٩٢ - ٩٣ .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم ١٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٥) راجع ماسبق بالفصل الثانى ص ٥٦ .

الأمير جهار كس (جار كس) الخليلي، أحد قواده المخلصين (١). وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين، وأصلح خزان السّلاح بغفر الاسكندرية ، وسوّى مدينة دمنهور ليقبها من هجمات البدو . وعمر الجبال الشرقية بالقيوم بالناس ليقبها من هجمات البدو ، كما عمّر زاوية البرزخ بدمياط (٢) ، وقناة العروب بالقدس ، وبني بركة بطريق الحجاز إلى الحج . وجدد السلطان برقوق القناة التي تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل ، وأصلح الميدان تحت القلعة ، وزرع به بعض النباتات ، وبني صهريجاً للماء ، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل ، وجعل عليه وقفاً ، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلاً تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة (٣) ، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التي أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجري ، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر في مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما بعد (٤) . ثم إن السلطان برقوق اهتم بالعلم إذ افتتح مدرسته التي بناها بين القصرين في أثناء سلطنته الأولى في احتفال عظيم ، واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم العربي (٥) ، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم ، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة ، ثم جعل بها درساً للتفسير ، ودرساً للحديث ، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها في كل يوم الخبز واللحم ، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدرهم ، ووقف على ذلك الأوقاف الخليفة من الأراضي والدور ونحوها (٦) .

وفي شوال سنة ٨٠١ هـ - يولية سنة ١٣٩٩ م - مرض السلطان برقوق مرض الموت . وحين شعر بدنو أجله في ١٤ من شوال ، وخشى أن ينهار هذا البناء الذي كافح من أجله طويلاً ، فكر في أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده ، ولذا استدعى الخليفة المتوكل ، والأمير ايتمش ، وقاضى القضاة ، وسائر الأمراء ، وأجلس الخليفة عند رأسه ، والقضاة الأربعة بين يديه ، وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ص ٢٦٩ ج ٢ - المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبي النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان - راجع كذلك ابن ماق : قوانين العوارين ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥ .

(٤) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٥) راجع السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١١٣ .

بالسلطنة لأولاده من بعده ، وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم على التوالي ، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد ، وأن يستمر جميع الأمراء في وظائفهم حسب ترتيبه ، وأن يكون ابتمش أنا بكاً لصغرسن فرج . وفي ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ يونيو سنة ١٣٩٩ م توفى السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة (١).

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق . ذلك الرجل الذي امتاز بهذه العقلية الفذة في وسط مملوكة طغي عليه الضعف والجهل في آن واحد . تحدث عنه العيني بأنه « كان حسن القامة ، عريض الكتفين ، فصيح السلطان ، ذكي الفهم ، عالماً بألوان الفروسية ، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن ، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزازة والصبر والتحمل . . . . . لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التبرغاوى في يومى الأحد والأربعاء مع الأمراء (٢) » . وامتدحه الخطيب بأنه « كان كثير الإحسان للمحتاجين محباً لأهل العلم والخير والدين ، متواضعاً معهم ، ولم يعرف لأحد من السلاطين قبله هذه الصفات » (٣) . والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر في دولة المماليك الأولى ، ولكنه يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاة والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته (٤) ، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة . في بداية سلطنته في الوظائف المختلفة فإنه فشل (٥) كما فشل في إيقاف تيار غش النقود (٦) ، مما كان له أكبر الأثر في الأحوال الاقتصادية وقتذاك .

وإذا حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذي عرف في بيت قلاوون ، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد (٧) . حقيقة لم يكن في وسع أحد من ممالك السلطان برقوق أن يعارض في تنفيذ وصيته لفضله عليهم ، فسلطوا ابنه فرج في

(١) ابن تيمى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٢ ، ٦٣ - القمز عبارة عن لبن مصنوع بمحض وكان القمز يسكر راجع ابن إلياس ج ١ ص ٢٦٩ - أما التبرغاوى : فهو شراب صنعه الأمير ترمبا سنة ٧٩٧ هـ من الزبيب أصعب به السلطان برقوق وسى التبرغاوى : راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٤ .

(٥) المقرئى : الملقى الكبير ج ٣ ورقة ٢٨ .

(٦) الأسدى : كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣ .

(٧) Devonshire : l'Egypte Musulmane p. 93

١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ من يونه سنة ١٣٩٩ م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له ، ولكن سرعان ما ناصب الخصاصكية - بزعامة الأمير يشبك الخازندار - الأمير أيتمش أتابك السلطان فرج العداء ، بسبب ما بدا بينهم وبين باقي كبار الأمراء المناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً . وما زال الخصاصكية بالسلطان حتى طلب من أيتمش أن يرشده . كما نجحوا في طرد أيتمش من القلعة فحسكن خارجها . غير أن نجاح الخصاصكية في إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذي لم يرض أفرادَه بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذي استحوذ على النفوذ (١) . وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ - سنة ١٤٠٠ م (٢) .

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الناصر على فرج في سورية . واجتمعت في سورية الفئات المملوكية النائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق ، وشيخ المحمودي نائب طرابلس ، ويشبك الخازندار ، ومع أن جميعهم من مشروعات السلطان ببرقوق الجراكسة ، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية ، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة ، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج (٣) . وظل فرج عاجزاً عن إقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار في ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة . ولم يقد فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم ، فتمكن جيشه من هزيمتهم ، وفروا إلى سورية ولكنهم عادوا في ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ فبراير سنة ١٤٠٥ م ، واشتركوا في خلع فرج الذي اختفى في بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه . ولم تكن هناك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموي عنيف ، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبد العزيز (٤) . غير أن عبد العزيز لم يستمر في السلطنة طويلاً، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلقي وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقي مختفياً تسعة وستين يوماً ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٠٨ هـ - أبريل سنة ١٤٠٥ م . واستمر فرج في السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥ هـ - يناير سنة ١٤١٢ م (٥) . ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة في السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة في

(١) المقرئزي : السلوك ( النسخة المصورة ) ج ٣ ورقة ١٣ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦ .

(٣) ابن تنزي ردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) المستقلاني : إنباء الفجر ج ١ ص ٦٨٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠ .

بيت برقوق ، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعهم عاملان : أولهما إعداد الجيوش لصدد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية ، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كؤوس للدولة جديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر في أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم في خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر ، حتى إذا امتحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ المحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله ، وسلطن الخليفة المستعين في ٢٠ من المحرم سنة ٨١٥ هـ (١) . وجعل الأمير شيخ المحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه (٢) . ولكن محاولته سنة ٨٢٣ هـ لإبقاء السلطنة في بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١ م . وبرسبای سنة ٨٢٥ هـ - ٨٤١ هـ وجقمق سنة ٨٤٢ هـ - سنة ٨٥٧ هـ وإنبال سنة ٨٥٧ هـ - سنة ٨٦٥ هـ في تولية ابن كل منهم السلطنة بعده ، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهر أو أيام ، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين في دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشترواته للظفر بالقوة والسلطة ، فضلا عن الإكثار من عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشتروات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر (٣) ، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية .

وهكذا صار المماليك في دولة المماليك الثانية يتخبون للسلطنة أوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، أو أكبرهم سناً في بعض الأحيان ، ولم يكن هؤلاء في غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً في مصر أو سورية . ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة ، وانتهت شيئاً بعد شيء إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه (٤) . *Primus Inter Pares* ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليغاركية العسكرية ممثلة في زعماء المماليك المقدمين ، وكان هؤلاء شديدي الغيرة على طبقتهم يتبعون أن يحتفظوا بها نقية صافية ، فعهدوا في تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية (٥) .

(١) العيني : السيف المهند ص ١٩٢ .

(٢) الميمني : إتحاف إخوان الصفا ورقة ٣٢ أ ،

Demombynes : *La Syrie A l'Epoque Des Mamlouks* ; intr. p. XXV.

(٣) راجع العريضي : الفارس المملوكي ص ٦٧ ب .

(٤) Hitti : *Hist. of the Arabs* : p. 694 انظر

(٥) Brockelmann, C : *Hist. of Islamic Peoples* : p. 236

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية اصطفت بصيغة جديدة هي الصيغة الجركسية ، وهي التي أصبحت أهم الصفات التي ميزت دولة المماليك الثانية عن دولة المماليك الأولى ، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه ، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ٧٨٢ هـ - سنة ١٣٨٠ م ، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم . ومن تبار السلطان برقوق الذين عاونوه في هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى (١) . وعلى حين بلغ عدد الجراكسة في بداية سلطنة برقوق نحو ألفي مملوك ، ارتفع هذا العدد في نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جر كسى (٢) ، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العيني بنحو عشرة آلاف مملوك (٣) .

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى . ووضح هذا التمييز العنصرى في تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاع الكبيرة وتوظيف شبابهم في الوظائف الكبرى ، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأيه صراحة في قوله « هم أولاد عمى وعشيري » (٤) ولم تأت سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة (٥) .

وبلغت حرب الإبادة التي شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى أنبى موسوعته : «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» سنة ١٤١٢ م ، ذكر أنه في وقته «قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم» (٦) فضلا عن أن حروب تيمورلنك في وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية ، وأدى هذا إلى تغير واضح لا في العناصر التي كونت الجيش المملوكى فحسب ، بل في حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك ؛ إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية - وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى في دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام في دولة المماليك الثانية (٧) .

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٨٩ ب .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٧ .

(٣) العيى : عقد الجبان ج ٢٥ ورقة ٦٣ .

(٤) كتاب قهر الوجوه العباسية ص ١٢ - ١٣ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٩١ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٧) Poliak : le Caractère Colonial p.p. 242-244 .

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى في ضمان بقاء السلطنة في بيته ؛ ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى في أواخر أيامه إذ رغم اعترازه بالجراكسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له ، وذلك أنه في ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠ هـ - سنة ١٣٩٨ م دبر الأمير على باى - رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتر بهم برقوق - مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو في طريقه إلى حفل فتح الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذره . وعمل حتى فشلت خطة على باى ثم قبض عليه وخنقه (١) .

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسى في نفس برقوق تأثيراً كبيراً جعلته يندم على اعتماده على بنى جنسه ، وبدأت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير على باى من مشروعاته الذين رباهم ، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دوا داره ، وأقطعه لإقطاعاً وافراً . ولم تمض مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه (٢) . وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه «لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة» (٣) . والخلاصة أن السلطان أمن له في كل الأمور ، ولم يتصور أن يقدم على باى على الخيانة ، ولهذا لا نعجب أن تؤدي هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير على باى وتعذيبه ، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون على باى ذكرواحداً منهم من قسوة العقوبة . ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم ينتصح بنصيحة زوجته التركية «خوند الكبرى ارد» التي طالما حذرت من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها : «اجعل عسكريك أبلق من أربعة أجناس : تتر ، وجركس ، وروم ، وتركان ، تستريح أنت وذريتك» (٤) . ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصيحة بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته «الذى كنت أشرت به على هو الصواب ولكن هذا كان مقدرأ ، ونرجو الله تعالى لإصلاح الأمر من اليوم» (٥) .

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشروعاته الجراكسة ، وأخذ في ترقية بعض العناصر الأخرى (٦) ، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة في

(١) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٣٨ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٥ ، ورقة ٣٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٤ أ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٨٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٦) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧ .



حولة الممالك الثانية لعاملين : أولهما أن عدول السلطان عن تماديه في الاتجاه العنصرى جاء في أواخر أيامه ، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجراسكة من مشرواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى في الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجنود من الجراسكة ، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية .

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسى ، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة ، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة الممالك الترك ، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجراسكة . ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى الذى امتدح حكم طشتمر العلأى التركى (سنة ٨٧٧٩هـ) ، ووصفه بالازدهار على حين بَيَّن أن هذا الازدهار اخفى بزمه وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غير من العناصر المملوكية وإعطاء الجراسكة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم . وبين ابن تغرى بردى المرارة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : «أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر ، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فمنهم حيناً وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأذنوه ، فكان لايلى وظيفة إلا من يستحقها» (١) .

على أن سياسة الجركسة التى بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراسكة أنفسهم . ويرجع هذا إلى غائلة السلطان فرج لاتجاه أبيه ، حيث مال إلى الممالك الروم لأن أمه «خوند شيرين» كانت رومية (٢) . وحين مال فرج إلى الروم وزاد فى إكرامهم حقد عليه الجراسكة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسى أكبر الجراسكة سنًا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣ هـ (٣) — سنة ١٤٠١م — ثم عاد الجراسكة يتحينون الفرص لقتل فرج ، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع ممالكه فى حمام فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ — سنة ١٤٠٥ م ، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومى (٤) . وكان سبب اختفاء فرج فى هذه السنة إحساسه بكرهية الجراسكة له ، وأنهم لم يهتموا بشكواه فى موضوع اعتداء بعض الممالك الجراسكة عليه فى الحمام (٥) . واعتقد الجراسكة أن سلطنة أخيه عبدالعزى ربما تبعث النفوذ الرومى الذى بدأ فرج فى تشجيعه . غير أن عودة فرج إلى عرشه فى جمادى الآخر

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٢٢٨ ب .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٣) المبنى عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق وأجزاء ص ٣٢٩ .

(٥) المرجع السابق والأجزاء والصفحة .

سنة ٨٠٨ هـ كان ضعفاً على لياالة، إذ تعقب السلطان فرج الجراكسة في سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم في يوم واحد مائة جر كسى (١) ، ثم عاد وقتل سبائة وثلاثين جر كسيا في سنة ٨١٤ هـ. سنة ١٤١١ م (٢) ، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج باقتسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب ، ولم يكن عجباً أن يتمكن واحد منهم من قتله في ١٧ من صفر سنة ٨١٥ هـ (٣) .

أما شيخ الحمودى الذى تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥ هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه ، وتردد في سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جر كسى مثلهم ، فلم يظهر ميلاً نحوهم ، كما أنه لم يظهر ميلاً للروم كما فعل السلطان فرج ، وأوضح ابن تغرى بردى سياسة شيخ في قوله : « كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من الممالك ، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره ، بل حيثما ظهرت له النجابة من الشخص قريبه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك (٤) » . على أن ابن تغرى بردى عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض الترك لأن أكثر أمراءه كانوا منهم (٥) . وكيفما كان الأمر فإن النكسة التى منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً في عهد برسبای .

ومهما يكن من شئ فإن هذه الصبغة المملوكية الجديلة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم (٦) ، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشى أنابكاً له ، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشى ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطغمه في السلطنة ، لأنه على قول ابن تغرى بردى « كان من جنس غير جنس القوم لا غير (٧) » .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ( كاليفورنيا ) ج ٦ ص ٢٥١ .

(٢) المستقلان : إنشاء الفهر ج ٢ ورقة ٣٠ ب .

(٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩ ، انظر ماسبق بهذا الفصل ص ١٠٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : المهمل الصافي ج ٢ ورقة ٢٠٦ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ( كاليفورنيا ) ج ٦ ص ٤٣٠ .

(٦) بلغ تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية في سيامة الجر كسة أن برسبای أطلق من بق من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥ هـ حتى تهتكوا في المنتزهات وقصد حالم وبيع بعضهم أرزاقهم و صاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى في الأسواق ( راجع ابن تغرى بردى : المهمل الصافي ج ١ ورقة ٢٦٥ ) .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ( كاليفورنيا ) ج ٦ ص ٥٤٧ - وثمة أدلة أخرى على أن عنصرأ غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية حالة الخليفة المستعين الذى جعل ألعوبة في عملية التنافس السياسى حين انتخب سلطاناً =

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق في جلب أقدارهم من بلادهم الأصلية في أعداد كبيرة (١) . ومع أنه لا يفتننا الدليل على هذا الاتجاه في عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ . وبلغ هذا الجلب أكثره في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي برغم مغالاة التجار في أثمان المماليك الإجراكة لتهافت السلاطين على شرائهم (٢) . وإذ شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين ، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريجاً عسكرياً دقيقاً كما لو كانوا في سن مبكرة عن هذا . وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا في الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم مع أهمية هذه التربية في إعداد الملوك خلقياً وعسكرياً . ثم ساد في دولة المماليك الثانية عناية السلاطين وكبار رجال

- 
- مقبل سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة شهور في سنة ٨١٥ هـ - سنة ١٤١٢ م (راجع: Arnold The Caliphate (p.p 100-101) ثم في الحالتين التين اعتل فيهما السلطنة اثنان من الروم وهما خشقدم وتمرينا (راجع ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة « كاليفورنيا » ج ٧ ص ٦٦٧ ، ٧٤٢ السيرطي : نظم العيان ص ١٠٩) وفي سلطنة خشقدم في ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥ هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانيث نائب الشام لأنه « رجل عظيم ومن المجلس » (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧) . وإذا انقسم المماليك فرقتين وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيس . فإن أهم ما كان يهتم به أن يتولى السلطنة واحد من فرقتهم يمكنهم تحقيق مآربهم في السيطرة على شؤون الدولة . ولذا عرض الأمير جانيث المشد على الأمراء حسماً للموقف لسلطنة الأمير خشقدم المؤيد « فإنه من غير المجلس ، يمتنى كونه روى المجلس ، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومنى أردتم خلعكم أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصونونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام » . (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) . ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم ؟ أما الإجابة فتتضح في أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة في سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane-poole : Hist of Egypt. p. 325) أما تمرينا الذي وصل إلى السلطنة في ١٠ من جمادى الأولى سنة ٨٧٢ هـ - سنة ١٤٦٧ م . فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا السلطان يلباي سنة ٨٧٢ هـ . كما أنه كان يحكم أقاليمه في الإمارة مقدما للمماليك الظاهرية الجراكة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ « كاليفورنيا » ص ٧٥٧ - ٧٥٨) وتوهم تمرينا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايى الجركسى والرجل الثانى فرقة الظاهرية الجراكة أتابكا المساكين . غير أن قايى أمكنه أن يجمع شمل الجراكة ويخلص تمرينا دون كبير عناء وذلك في ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨) .
- (١) راجع السخاوى : التبر المسجوك ص ٢٦٩ ، ٣٠٧ .
- (٢) البندادى : عيون أخبار الأعيان : ورقة ٤٨١ .

الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والإقطاعات في غير نظام (١) . وتبع هذا كثرة المصادر وانتزاع الأوقاف وتوزيعها إقطاعات (٢) وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعات (٣) .

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء لمنال وقايتباي (٤) . ولم يكن غريباً بعد هذا الاتجاه أن يأتي الجلبان من الجراكسة إلى مصر ، وخيال السلطنة في رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حفيّر فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية مثله السلطنة (٥) .

ولاشك ، أن سرعة تخريب الممالك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم حصار عملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية في دولة المماليك الثانية ، ذلك النظام الذي كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى . وأنحي المقریزی باللائمة على السلطان يرقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه «رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج ، فترلوا من الطباقي من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد (٦) » . ويضيف أياالون Ayalon إلى العوامل التي سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمرنات الحربية ، التي كانت من ألزم الأمور لتربية الفارس المملوكي في الدولة الأولى ، تلك التمرينات التي اعتمدت على السيف والنشاب والقرص ، واستبعد أياالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية في الجيش المملوكي وقتذاك (٧) . والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التي أدت إلى فساد عام في المجتمع الحربي المملوكي ؛ ومن أهم هذه العوامل — إلى جانب ما ذكرنا — إبطال السلطان

---

(١) ابن تقي بردي : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ أ ، ج ٢ ورقة ٦٢ أ ، ج ٣ ورقة ٢٥ ب .

(٢) المقدمي : نزعة التناظرين ص ٢٥٧ .

(٣) ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ « كاليفورنيا » ص ١٩٥ — ذكر ابن تقي بردي في نفس المرجع الجزء ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن ملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده ، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المغارم والظلم المستمر وقلة نظر الحكام في إحكام البلاد .

(٤) راجع ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٤ ، ٢١٠ .

(٥) البندادي : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١ .

(٦) المقریزی : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٧) Ayalon : Gunpowder & Firearms. p. p. 52-54

برقوق عادة الركوب إلى الميدان ، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيدين في الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة ، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على .إى سنة ٨١٠هـ - سنة ١٣٨٩م - صلى السلطان بقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة ، شحوفه من المؤامرات وهجر الميدان (١) ، وهجره من جاء بعده من السلاطين ، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطاني (٢) . ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام السلطان فرج بن بقوق لتفضيل المماليك الراتب التقدي ، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم حتى صار غداؤهم في الغالب القول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره (٣) . وأضاف المقرئى ، عوامل أخرى أسهمت في ضعف هذا النظام في قوله : « وبقي الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار وغير ذلك . واستقر رأى الناصر فرج على أن تسلّم المماليك لفقيرهم بثلثهم بل يتركون وشئونهم ، فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشجعهم نفساً ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فهم إلا من هو أذن من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنهما من شهر إلا ويظهر من انحلال العام ما لا يتدارك قرطه (٤) » .

واقترضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان بقوق عدة تغيرات في نظم الحكم والإدارة . وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتى كادت تتلاشى ، ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة في أوائل دولة المماليك الأولى (٥) لكن

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع ابن تفرى بردى : منتجات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان في عهود باقي السلاطين حتى عهد النورى حين بدأ في صفر سنة ٩٠٩ هـ يولي ١٥٠٣ م بإنشاء ميدان كبير رغبة في عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصغرى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع .

Ayalon : op. cit p. 57-58

(٣) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤ .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٥) كان أول ملوك تولي الوزارة في الدولة المملوكية الأولى هو سنجر الشجاعى (٦٩٣ هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد في هذا العصر مؤداه « أن الوزارة إن لم يتقلدها ملوك فسد الحال » ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضفاف شأن الوزارة دون إلغائها . راجع

Ayalon : Studies, III p. 61.

استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها ، واقتصر متوليها في دولة المماليك الأولى على التحدث في الأمور المالية ، ووزعت باقي اختصاصات الوزير على ثلاثة : هم ناظر المال ، واخص بتحصيل المال وصرف النفقات ، وناظر الخاص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين ، والثالث هو كاتب السر واخص بالتوقيع في دار العدل ما كان يقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً<sup>(١)</sup> . أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة في يده ، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذي أقام فيه ناظرًا وشادين وكتابًا ، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف ما يتحصل منه في جوامك مماليكه المشتروات ، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيرًا من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة<sup>(٢)</sup> ، حتى اقتصر اختصاص الوزير على التحدث في أمر المكوس ، فيحصلها من جهاتها ويصرفها في شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات لإفناق القصر السلطاني . وبلغ من ضعف شأن الوزارة أنه ابتدأ أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش ، يشتري (الوزير) اللحم والحطب وحوايج الطعام ، وناظر الخاص غلام صلف يشتري الحري والصوف والنصاق والسنباب وأما ما كان للوزراء وناظر الخاص في التقديم فقد يطل (٣)» .

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة ، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاص والوزير ، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك في دار العدل وفي داره ، وأخذ الاستادار التصرف في نواحي أرض مصر والتحدث في أمور الدواوين السلطانية وفي كشف الأقاليم وولاية النواحي وفي كثير من أمور الوظائف ، وأخذ ناظر الخاص جانبًا كبيرًا من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها في متعلقات الخزانة السلطانية ، وبقى للوزير شيء يسير جدًا مما كان يتحدث فيه ، فاقصر على النظر في المكوس وبعض الدواوين ومصارف المطبخ السلطاني والسواقي ، كما صار مرجع ناظر للدولة وشاد الدواوين وناظر بيت المال وناظر الأهرام ومستوفي الدولة ، وناظر الجهات ، أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره<sup>(٤)</sup> .

وثمة تغير آخر في نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المقرئزي : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، راجع كذلك

Poliak : Feudalism : p. 4.

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم في دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب (١). وكانت رتبة الحجة في دولة المماليك الأولى رتبة جلية ، وتأتي في الترتيب الوظيفي بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجة حاجب الحجاب . والحجة وظيفية من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر في مناصمات الأمراء والأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ، ونحو ذلك تارة بنفسه ، وتارة بمشورة السلطان ، وتارة بمشورة النائب . وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند . وكثيراً ما قام الحاجب مقام النائب في غيبته أو اعتقاله (٢) . ويبدو أن السلطان يرفق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم في القبض على المتآمرين منهم مجرد صدور أمر السلطان . ولم يكن أحد من الحجاب في دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم في شيء من الأمور الشرعية ، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صار للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكتابة الولاة في مختلف الأعمال والأقاليم (٣) وفي عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية . ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع ، وإنما ارتزقوا من النظر في مظالم الناس ، وصار الحاجب يحكم في الناس جميعاً حتى في الأحكام الشرعية ، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر في قضايا الناس ، حتى صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه بضربه أو أخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك (٤) .

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحرى ونيابة الوجه القبلى . ولم تكن هناك بالوجه البحرى سوى نيابة الإسكندرية التى رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨هـ بسبب كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية . وفى عهد السلطان برقوق أصبحت دمنهور مقر نائب الوجه البحرى . وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان في البحيرة ، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبيها أهمية كبيرة . ويؤيد هذا الرأى ما ذكره القلقشندى أن نيابة دمنهور « ليست على قاعدة النيابة بل هي في الحقيقة ولاية حرب كبيرة » (٥) . وترتب على هذا التغيير الإدارى أن جعل للوجه البحرى كاشفاً من أمراء الطبلخانة يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة ، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٩٧ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) المقرئى : نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩ ، ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥ .

في كل أموره إلى نائب الوجه البحري (١) . وإلى جانب هذا أبقى السلطان برقوق على وظائف الولاة التي عرفت في دولة المماليك الأولى في الوجه البحري في بليس وفي منف والحلة ؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحري (٢) .

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التي هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشئ نيابة أخرى بالوجه القبلي صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها في رتبة نائب الوجه البحري بل لعله أعظم شأنًا منه ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلي بأسرها (٣) . على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه وإلى الولاة . وحين ازدادت الأخطار التي هددت البلاد من التوبة والحيشة استحدث برقوق وظيفة وإلى أسوان ، وكانت قبل ذلك مضافة إلى وإلى قوص . والخلاصة أن الوجه القبلي صار فيه خمسة ولاة في المهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان ، وجميعهم تابعون لنائب الوجه القبلي (٤) .

ثم إنه نظرًا للأخطار الخارجية التي أحدثت بالسلطنة المملوكية الثانية في بدايتها ، جعل السلطان برقوق نواب الثغور والبلاد الواقعة على الحدود من مقدمي الألوف بعد أن كانوا في الدولة الأولى في رتبة أقل . ومن هذه النيابات عينتاب ودرندة وشيزر والأبلستين وإيلاس وطرسوس والبيرة (٥) .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٣٦ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .



## الفصل الخامس

# دولة المماليك الثانية وجيرانها حتى سنة ١٤١٢ م

ظهور تيمورلنك في الشرق الأوسط - علاقته بدولة  
المماليك الثانية - موقف السلطنة المملوكية الثانية من الدولة  
العثمانية - دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوبية والرواس  
حتى سنة ١٤١٢ م - سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد  
المغرب - برقوق وفرج وإمارة مكة - اليمن والسلطنة المملوكية  
الثانية - علاقة السلطان برقوق بالحشمة والنوبة وآثارها .

اقترن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة  
بين الدول التي تآخمت حدودها الشرقية ، فأخذت هذه الدول تحطّط ود السلطان  
برقوق ورغبة في التمتع بحمايته وطلب معونته ، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط  
آسيا وغربها . ولم يتأخر السلطان برقوق في أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه ،  
حتى إن أصحاب سنجان وقيصريّة وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ - سنة ١٣٨٣ م  
إلى السلطان برقوق برغبتهم في إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان  
برقوق سارع السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم<sup>(١)</sup> وكتب لكل منهم تقليداً  
بنيابة السلطنة في بلده (١) .

والواقع أن خطر التتار في الشرق الأوسط وضحّح في هذه السنة حيث ظهر  
تيمورلنك (٢) ، واستولى في سرعة مذهشة على بلاد ماوراء النهر ، وجعل سمرقند  
عاصمة لبلاده ، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان (٣) . ثم

(١) راجع السقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠١ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٤١٦ ، ٤٢٢

(٢) أصله من قبيلة جوركان إحدى فروع قبيلة برلاس للتتارية وهو حفيد قراشور  
نويان وزير جغتاي الابن الثاني بلتكيز خان ، أطلق عليه تيمور كوركان ومعناه صهر الملوك ؛  
وأصل اسمه « تمر » ثم أضيف إليه « لنك » ومعناه الأعرج لإصابته في فخذه حين كوّن عصابة  
لسرقة الأغنام وصار يعرج - وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أراضهم حتى وصل إلى  
الملك - راجع ابن عربشاه : فاكهة الخلفاء ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) Sykes : A History Of Persia : VII P.P. 281-202

زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م وطرد حاكمها قرا محمد التركاني . ومن هناك أرسل تيمورلنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردین يستدعيه . غير أن حاكم ماردین الذي احتسب بالسلطنة المملوكية الثانية ، أرسل إلى تيمورلنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكي في هذه الزيارة (١) . وغضب تيمورلنك لهذا الرد . ورغبة منه في إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمورلنك الكتابة اليه بقوله : « ليس لصاحب مصر بملكك حكم » (٢) ، كما أوضح له أنه لا يهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه . وبرهن لصاحب ماردین على صدق نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير (٣) . ولم ينتظر تيمورلنك رد صاحب ماردین إذ رحل فجأة في سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها في غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمورلنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدین له كل ملوك الأرض بالطاعة ، وأن تظهر شخصيته الخفيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً ، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه (٤) . ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة ، أو ارتبطت معها بأواصر الصداقة والتحالف في الوقت الذي قام فيه تيمورلنك بالتوسع رغبة في إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته في العالم المعروف وقتذاك ، جعل وجود هذه الدولة شجاً في حلقه . على أن اتساع رقعة البلاد التي فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه في وقت واحد ، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمورلنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م أسرع قرا محمد التركاني واستعاد بلاده ، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بمودته إلى عرشه وأنه ضرب في تبريز السكة باسم السلطان ، ودعا له فيها على منابرہ ، وسأله أن يكون نائباً بها عنه (٥) .

وعلى حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردین ليعث برسله إلى برقوق ينهيه بما جرى بينه وبين تيمورلنك ، عاد تيمورلنك ، سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م فجأة وهاجم بغداد ، فازداد خوف مجد الدين عيسى ، وأسرع في إرسال

(١) ابن تفری بردی : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٤٣ .

(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة ؛ الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .

(٣) المقریزی : السلوك ج ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .

(٤) Malcolm : Hist. Of Persia PP 482-483 .

(٥) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤٩٥ .

الرسول إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع (١) . وبين محمد الدين عيسى في رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمورلنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجللايرى حاكم بغداد (٢) ، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور في مايو سنة ١٣٩٣م ، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير على بلاده ، وأنه لا يطلب سوى ضرب السكة في بغداد باسمه ، فليس أحمد بن أويس الخلعة وطاق بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمورلنك . ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمورلنك يقترب من بغداد ومن غريبها ، وهي الناحية التي لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورلنك بهجومه منها . فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية ، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر (٣) . فتقدم تيمورلنك بمحافظه لحصار بغداد سنة ٧٩٥ هـ - يولية سنة ١٣٩٣ م . وبرغم هذا فإن تيمورلنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين ، قتل في أثناءها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها (٤) . ومن بغداد أرسل تيمورلنك ابنه ميران شاه في أثر ابن أويس فأدركه بالخلعة (٥) ونهب ماله ، وسبى بعض حريمه وأمر وقتل كثيراً من أصحابه (٦) ، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه في نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراة ، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان برقوق (٧) .

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفرغ لهذه الأخبار التي أنبأه بها صاحب ماردین ، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو للسلطان أحمد بن أويس بن حسن بن حسين بن اقبنا بن أيلكان الجللايرى تولي الحكم في بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحتهم العراق راجع العيني : السيف المهند ص ١٨ - ١٩ .

Yazdi : Zafarnama VI, P.434, (٣)

(٤) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٥) مدينة بين الكوفة وبغداد - راجع ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٢

Grousset : L'Empire Des Steppes .P, 512 (٦)

(٧) ابن تفرى بردى : الملل الصافي ج ١ ص ٢٢٣ - بدأت علاقة السلطان أحمد بن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥ هـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقناش . ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقاته بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨ هـ - راجع المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤١٦ ، وما بعدها .

٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية (١) ، كما أن السلطان برقوق عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له ، فضلاً عن أن تيمورلنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية (٢) . على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته ، حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه ، فكتب السلطان برقوق إلى نعيم أمير آل فضل بإكرامه ، والقيام له بما يليق به . ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس . واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه . واتفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار ، فضلاً عن بعثة سلطانية راقت ابن أويس (٣) . واستقبل السلطان برقوق أحمد بن أويس استقبالاً رائعاً ليتردد صدق هذا الاستقبال في بغداد إذ خرج الأمراء للقائه في ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) ، ونزل السلطان برقوق معهم ومع العسكر إلى الريدانية . وحين قرب أحمد بن أويس من مسطبة السلطان نزل عن فرسه ، ومشى عدة خطوات ، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد ، على حين عانقه كبار الأمراء (٤) . ثم قام السلطان برقوق ومشى نحو عشرين خطوة ، فأمرع ابن أويس نحوه حتى التقيا . ولم يقبل السلطان برقوق أن يقبل ابن أويس يده بل عانقه ، ثم بكيا وسارا متشابكي التراعين نحو المصطبة السلطانية ، حيث دارت المناقشات في طريقة إعادته إلى عرشه . وخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس ، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس . وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة في بركة الفيل حيث أرسل له السلطان مائتي ألف درهم فضة ، ومائتي قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية (٥) . وكأنما أراد تيمورلنك أن يحدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م إلى القاضي أبي العباس أحمد صاحب قيسرية وتوقات وسواس ، رسالة سبب فيها وهدده وبقوته التي لا تقاوم ، وبشره « بالمستقبل المظلم » إن لم يعلن طاعته له . غير أن أبا العباس أحمد الذي تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥ هـ قطع رموس كبار

(١) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤ .

(٣) ابن تقي بردى : النجوم ج ١٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٤) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ .

(٥) ابن تقي بردى : للنجوم ج ١٢ ص ٤٦ - ٤٧ .

برسل تيمورلنك وعلقها في أعناق باقي الرسل ، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقيين إلى السلطان العثاني بإيزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما . وسر كل من السلطانين برقوق وإيزيد برسالة أبي العباس وما قام به ، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قصيرة لمقاومة تيمورلنك (١) .

ثم إن تيمورلنك أرسل من بغداد في نفس السنة ١٣٩٣ م ، بغية إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ سواح ، وزوده بهدايا عديدة وقيمة ، وكتاباً إلى السلطان برقوق (٢) ، وحين وصلت بغية تيمورلنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية (٣) . أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه في تمكينهم من الدخول إلى البلاد ، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها ممالك وجوار وغير ذلك . فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وإرسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمورلنك . وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذي تعامل به مع ملوك الدول التي قهرها ، إذا اشتملت الهدية على أمرى من أعيان بغداد وقضاها (٤) . كما أن كتاب تيمورلنك إلى السلطان برقوق اشتمل على نوع من التهديد ، إذ طالب تيمورلنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكي في أسباب الأضرار الجسيمة التي لحقت بملكات المغول من حكام مصر السابقين ، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التي قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت إيلخان بن سعيد سنة ١٣٣٦-١٣٣٥ م (٥) ، وطالب كذلك بطرد أحمد الجلايري (٦) . ثم بين تيمورلنك في كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمرقند إلى حدود العراق العربي الملائقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية ، وأن أهالي هذه المنطقة يتمتعون بحمايته ، وعلى السلطان المملوكي أن يرعى حدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل ، وأن يمكن تجارهم من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمين (٧) .

غير أن الكلام الممسول الذي ورد في نهاية هذه الرسالة لم يعجب السلطان برقوق .

---

(١) Ibn Arab Shah : Tamerlane, pp. 89-91

(٢) مير خواند : كتاب روضة الصفا ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٣) Bouvet : L'Empire Mongol, p. 49.

(٤) السلوك ج ٣ خطبة ص ٧١٤ .

(٥) Browne : Litrary Hist. راجع الملحق الأول ص ١٦٧ ، وانظر . of Persia, VIII, p. 159.

Bouvet : OP. Cit. p 49. (٦)

P rice : Memoirs, VIII. P 160; Yazdi : Op. Cit. pp.440-441 (٧)

وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك ، فأمر قائبه بقتل رسل  
تيمورلنك (١) ، وأعلن عداؤه الصريح له ، فإنه كان على حق في مسلكه مع هذا الداهية  
الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً .

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ في هذه السنة ( سنة ٧٩٥ هـ ) بين السلطنة المملوكية  
الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية في الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذى  
هددهم جميعاً . يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركمانى زعيم قبيلة قره قو  
يونلو « الشاة السوداء » (٢) اشتبك وقتذاك مع « أطلمش توجين » قائد « قلعة أونيك » (٣) «  
وقريب تيمورلنك . وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذى سجنه بدوره (٤) .  
وبرغم غضب تيمورلنك من هذا العمل الجريء ومن رد كل من السلطان المملوكى  
وصاحب قيصرية ، وتحدى كل منهما له ، فضلاً عن تحدى السلطان العثماني له  
كذلك ، فإن تيمورلنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونتته الآخرين (٥) .

يبد أن تيمورلنك وجد أن بقاءه في بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلعة  
المثوبة بها (٦) . ولذا اتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد  
جهودهم . فاستولى في ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ - مارس ١٣٩٤ م على ما ردين بعد حصار  
قاس ، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى ، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركمانى ، واكتسح  
بعدها بلاد البحر الكاسية في شمال شرق البحر الأسود . ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية  
مكتوفة الأيدي إزاء تحركات تيمورلنك ، بل اصطدمت جيوش نائب حلب ، ونائب  
ملطية ، بطلائع جيوش تيمورلنك عند الراها . وتمكن جيشا النائيين من هزيمتها وأسرا  
من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقى التتار (٧) .

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم  
مخارية تيمورلنك ، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش . وعلى حين  
كانت الاستعدادات لتعبته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٢) تقع على حدود جورجيا - راجع Grousset : Op. Cit. p 512

(٣) تقع هذه القلعة في كورة ياسين في ارزروم - راجع مرصدا الاطلاع ج ١ ص ١٠٤ -

(٤) خواند امير : حبيب السير ج ٣ ص ٥٦ .

(٥) Ibn Arab Shah : Op. Cit. P 94.

(٦) Yazdi : Op. Cit. P 442.

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٤٨ - ٤٩ .

تيمورلنك (١) . وبدأ تيمورلنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له ، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة ، ثم عنفه على قتله لرسله السابقين ، وأنكر عليه إيواءه لأحمد بن أويس ، وطالبه بإرساله ورد جوابه (٢) .

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسملة ، ثم أخذ في نقد ما جاء في كتاب تيمورلنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمورلنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء ، وأنه لن يعلن طاعته إلا « لأمر المؤمنين وخليفة رب العالمين » (٣) .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمورلنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام (٤) . ونظراً لأن منطاش ترك خزان الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات (٥) ، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بجزائنة شمائل (٦) ، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذى سار « فى أبهج زى وأفخر هيئة » وأحسن ملبس ، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة (٧) . وسار السلطان فى ربيع الثانى سنة ٧٩٦ هـ - أبريل سنة ١٣٩٤ م على رأس هذا الجيش الضخم ، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه .

ويبدو أن تيمورلنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسرائى وما جاورها هاجم بلاده ، فاضطر إلى الاشتباك معه ، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه (٨) .

---

(١) راجع نص الكتاب بالملحق رقم ٢ ص ١٦٨-١٦٩ .

(٢) راجع المقرئى : السلوك ج ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه : عجائب المقلور ص ٦٥ - ٦٦ .

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقلور ص ٦٦ - ٦٧ - راجع نص الخطاب بالملحق رقم ٣ ص ١٧٠ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٢٤ .

(٥) البنى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٨ .

(٧) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٨) النزوى : تاريخ العراق ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمورلنك فإنه استمر بتقديم بالجيوش حتى وصل إلى دمشق في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ - مايو ١٣٩٤ م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشبالية الشرقية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمورلنك (١) . وفى دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى، إذ أن رسل طقتمش، الذى تقهقر أمام تيمورلنك إلى حدود بلاده، قدموا يعرضون معاونة طقتمش للسلطان ورغبتهم فى عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمورلنك (٢) . كما أرسل السلطان العثماني بايزيد رسله يعرض رغبته فى مخالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمورلنك (٣) . ورد السلطان برقوق على كل منهما رده بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتارى (٤) ، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين ، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط .

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنبابة السلطنة (٥) ببغداد ، وزوده بالأمرأ والممالك والخيل والجمال وال سلاح والتقد بما أدهشه (٦) . ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد فى أواخر جمادى الثاني سنة ٧٩٦ هـ - يونية سنة ١٣٩٤ م فتمكن أحمد بن أويس بهذا الجيش المملوكى ومعاونة قرايوسف التركمانى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد . وأخذ فى بناء سورها وتعميرها (٧) .

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها ، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها ، ولو على هذه الصورة الشكلية التى أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قبيل السلطان برقوق فيها ، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق . ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثماني بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتى ألف مقاتل لعونه على حرب

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والمملوك ج ٩ ص ٣٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٤) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٧ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٣١ .

(٦) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٧١ .

(٧) البندادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨ ، ذكر المسقلاني فى إنباء الغمر أن الأمير

العربى نعيم أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها، غير أن باقى المصادر أجمعت على أن أحمد بن أويس ، بمعاونة الجيش المملوكى ، طرد ابن تيمورلنك من بغداد واستولى عليها .



تيمورلنك ، كما قدم حكام الإمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون طاعتهم للسلطان برقوق (١) :

غير أن السلطان برقوق الذي أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد ، دون أن يهمل مراقبة حركات تيمورلنك ، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سورية وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها (٢) .

بيد أن تيمورلنك رغم انشغاله في غزواته لقلعة تكريت في ربيع الأول سنة ٧٩٧هـ - فبراير سنة ١٣٩٥ م ، وروسيا في ربيع الثاني من السنة نفسها ، والمهند سنة ٧٩٩هـ وسنة ٨٠٠هـ - سنة ١٣٩٨ م (٣) واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط ، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية ، إذ أرسل في ديسمبر سنة ١٣٩٨م ، رسلة إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريه أطلمش . وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإيقاعهم وإرسال الكتب التي معهم إلى مصر ، ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلى تيمورلنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه ومن الخير والإحسان بالديار المصرية (٤) . وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذي تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمورلنك إلا إذا أطلق تيمورلنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق (٥) .

ومهما يكن من شيء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفرغت تيمورلنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضى أبى العباس أحمد صاحب قيصرية ، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما .

وأظهر تيمورلنك سروره لهذه الأنباء (٦) . واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج ، وبدأ تيمورلنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ (خطية) ص ٧٣٣ ، ص ٧٤٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ (خطية) ص ٣٣ .

(٣) Browne : Op. Cit. P 193.

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٤٥٢ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٤ .

(٦) Ibn Arab Shah : Tamerlane P. 100

أن يتمكن السلطان المملوكي الجديد من ترتيب أموره ، أو محاولة الاتصال بالدولة المجاورة ، وعلى الأخص الدولة العثمانية التي حمل تيمورلنك لها أشد الكراهية ؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان ، الذين سبق أن احتلوا تيمورلنك (١) .

وفي صفر سنة ٨٠٢ هـ - يولييه سنة ١٣٩٩ م غادر تيمورلنك الهند ، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التي أزعج غزوها (٢) . ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات ، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه بركة الأيساعد قرايوسف التركاني أو أحمد بن أويس ، وأن يقف محايداً في هذه الحرب القادمة معهم ، كما وقف هو محايداً في حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦ م (٣) ، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التي طلبت أن تكون في حمايته ، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمورلنك ، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه : وليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم . ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب (٤) .

وأدرك تيمورلنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره ، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال في بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده. فقدم تيمورلنك في ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢ هـ - ديسمبر سنة ١٣٩٩ م ، واستولى على بغداد للمرة الثانية . أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرايوسف التركاني فلم يبقا فيهما غرباً لا لثدين بالسلطان المملوكي حتى أشرفا على حلب ، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب في نزولهما لديه ، غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما في حلب في نحو سبعة آلاف من فرسانهما (٥) فقاتلتهما بمعاونة عساكر دقماق نائب حماة . ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأمر بمائة ألف درهم (٦) ، وكتب ابن أويس وقرايوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاضطراد بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما ، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتتهما ، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهم إلى اهمال كتب أحمد بن أويس.

(١) دسلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) Lamb : La Vie De Tamerlane p. 204

(٣) حرب نيقوبوليس ، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149—150

(٤) Ibid p. 150

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركاني ، ومناصبتها العداء . وبدلاً من الاستعانة بقواتهما في هذه الظروف الحرجة ، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده في سياسة الحرص على تزعزع العالم الإسلامي والحرص على وحدته ، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيرة لقتالهما ، فاضطرا إلى اللجوء إلى السلطان بايزيد الذي أكرمهما ، وعقد معهما محادثة مما أثار حفيظة تيمورلنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية (١) .

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائيبها أمير مصطفى تابع لابن عثمان (٢) . وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد في سنة ٨٠٣ هـ - يولييه سنة ١٤٠٠ م وحمل تيمورلنك على الجيوش العثمانية وهزمها ؛ وفر سليمان إلى أبيه في مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركاني ، وأخذ تيمورلنك مدينة سيواس ، « وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها » (٣) .

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمرء الدولة المملوكية الثانية في هذا الوقت بالذات ، ولو لم يحدث لغير مجرى الحوادث ، ذلك أن السلطان العثماني بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكي فرج لإمكان الوقوف في وجه الخطر التيموري ، غير أن اللذين يدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثماني بسبب تمركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ . وبين ابن تغري بردي خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة ، وأوضح أهميتها آنذاك . في قوله إن الدراية الحربية التي كانت تنقص الجيش المملوكي كان يمكن تعويضها<sup>١</sup> من ناحية الجيش العثماني في فنون الحرب ، في حين أن قلة عدد عساكر « ابن عثمان » يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية (٤) .

وكيفما كان الأمر ، فقد تقدم تيمورلنك وزحف على ملطية في ٢٥ المحرم سنة ٨٠٣ هـ - أكتوبر سنة ١٤٠٠ م وأبادها على عادته (٥) . ومن هناك أرسل تيمورلنك كتابه الأول إلى السلطان فرج . وفي هذا الكتاب فند تيمورلنك للسلطان فرج أخطاء أبيه ، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك ، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه ، وأنه سيصيب انتقامه على الشعبين السوري والمصري إن لم يجهب إلى مطالبته (٦) .

(١) البندادي : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ .

(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢١٧ .

(٥) Ibn Arab shah : Tamerlene p. 116 .

(٦) Yazdi : Op. Cit VII p. 159 انظر الملحق رقم ٤ ص ١٧٢ .

«وحين وصل رسل تيمورلنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبيها — كالعاده — ليخبر  
السلطان أولاً بمجيئهم. غير أن فرج، جرياً على تقاليد والده، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم  
في السجن. وأضاف: هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليل آخر على جهله وأمراته  
بأُمُور السياسة في هذا الوقت الذي تخرج فيه الموقف على حدود سورية. وحين عرف  
تيمورلنك هذا الأمر تحركت فيه مكانم الغيظ والرغبة في الانتقام مما فعله بزقوق وابنه  
فرج في رسله؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثماني والزحف أولاً على بلاد  
السلطنة المملوكية الثانية ليبعد كل ما فيها بالنار والسلاح (١).

زحف تيمورلنك في رجب سنة ٨٠٣ هـ — نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على البهسنا (٢).  
التي أعد نائبيها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها، غير أنه حين وجد ضخامة جيش  
تيمورلنك تملكه الذعر، وأرسل إلى تيمورلنك يعرض رغبته في التسليم مع الاعتراف  
بِعجزه وحاجته لمعونة تيمورلنك، فأجابته تيمورلنك لما أراد وأحسن استقباله، وفي  
الحال سكت نفوذ جديدة باسم تيمورلنك، ودعى له في خطبة الجمعة بهذه المدينة (٣).  
وبعد أن استولى تيمورلنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة، زحف إلى عيتتاب شمال  
حلب. وعلى الرغم من أن عيتتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سلمت  
إليه، وفتحت أبواباً، فعين تيمورلنك عليها نائباً من قبله، وفر نائب عيتتاب إلى حلب (٤).

والعجيب أنه على حين تحدى الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في  
سورية من زحف تيمورلنك يزداد تنافس الأمراء في مصر على النفوذ، ويدبرون الفتن  
من أجل ذلك (٥). وتحت الظروف الاقتصادية والصحية السيئة التي أحاطت بالدولة،  
اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار  
للمعاونة في نفقة المعسكر. ولم يكن في وسع القضاة الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف  
الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبتهم لقتال تيمورلنك (٦).

وتحارب تيمورلنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق  
أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثماني، وأنه يقدمه إلى مصر أراد أن

(١) Ibid : p. 160

(٢) البهسنا قلعة عجيبة بغرب مرعش وسيطاً وهي من أعمال حلب. انظر مراصد

الإطلاع ج ١ ص ٨٣.

(٣) Ibid : p.p. 163—164

(٤) Ibid p.p. 164—165

(٥) Grousset : Op, Cit. p. 527

(٦) للمريزي : السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣.

تُضرب السكة باسمه ، وأن يذكر اسمه في الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقر في مصر سلطاناً يرضى عنه ، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطمئش قريه المقبوض عليه (١) .. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسط (٢) .

ولإزاء هذا التحدى الصارخ من نائب دمشق ، زحف تيمورلنك على حلب التي اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل في أول ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (لحدى قرى حلب) (٣) ، فتصدى له الأمير شيخ الحمودى. نائب طرابلس ، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمورلنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضخمًا ، وتكون من أحسن المحاربين. وزود بأسلحة كافية لصد أى هجوم (٤) . غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثير من الفرص وعرض سورية للضياع ، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة في حلب ، وعرض عليهم خطورة الموقف ، وقوة تيمورلنك ودهاءه ونصيحهم بضرورة التعاون بينهم جميعاً ، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ في هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها لقاء تيمورلنك ، ووضع خطة. ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمورلنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحي (٥) . غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء . ومع أن نواب سورية في عهد برقوق أسهموا بقسط كبير في صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية ، فإنه من المنجل أن يختلف الأمراء وقتذاك في سورية على الزعامة في هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف أمراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة (٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد عمد تيمورلنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء ، فأرسل إلى دمرداش الحمودى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون. نائب دمشق ، وجاء في كتاب تيمورلنك إلى دمرداش نائب حلب « إنا لما وصلنا في العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة .. فلما وصلنا إلى

(١) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٢٤ .

(٣) راجع الأنصارى : نخبه الدهر ص ٢٠٥ .

(٤) Yazdi : Op. Cit. VII p. 161

(٥) ابن عريشه : عجائب المقنور ص ٨٦ .

(٦) نفس المرجع ص ٨٧ .

العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد ، فتوجهنا إليهم ، فأظفروا الله بهم ، ثم رجعنا إلى الكرج ، فأظفروا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، ففعلنا بسيواس ، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصصنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا في الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها ، ... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا مقربينا أظلمش ، وإن لم تفعلوا ، فدعاء المسلمين في اعتناكم والسلام (١) .

ونشر تيمورلنك بوساطة رسله وجواسيسه الذين انتشروا بين العساكر أن دمرداش كاتبه لاحتلال حلب (٢) . غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمورلنك ودهاءه ، بل على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان . على أنه بما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع ، بدليل أن دمرداش حين رأى مطاولة تيمورلنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور ، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو ، وغضب دمرداش وبرأ جانبه بقتل رسول تيمورلنك ، واحتفظ برأيه لنفسه (٣) .

وعلى حين أخذ النواب في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمورلنك على قرية جيلان ، خارج حلب في ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠ م) . ثم تقدم لحصار حلب . وبرغم هذا الانقسام الذي ساد الأمراء بسبب خطة القتال ، فإن أهل حلب استماتوا في الدفاع عن مدينتهم ، وركبوا أسوار المدينة ، وقاتلوا تيمورلنك أشد قتال ، مما أضعف النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة ، ورتبوا عساكرهم فوق سودون نائب دمشق في الميمنة ، ووقف دمرداش نائب حلب في الميسرة وكون عساكر النواب الآخرين قلب الجيش . غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهر حين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها ، وصبيانها ، في مقدمة الجيش مما سهل على تيمورلنك اكتساحهم (٤) . ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمورلنك لهم ببجوشه وقيلته ، ففروا قاصدين داخل حلب رغبة في الاحتكام بأسوارها (٥) . ففتنهم جيش تيمورلنك وهاجم المدينة بكل قواته التي قومت بنحو ثمانمائة ألف

(١) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢١ .

(٣) Yazdi : Op. Cit. II p. 168

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٣ .

(٥) Price : Memoirs VIII p. 330

سجندى (١) ، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر مالا يدخل تحت حصر . وتناقل  
المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس  
بعضهم بعضاً حتى صارت الرمم طول قامة (٢) . ولحاً تيمورلنك إلى إشعال النار  
بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب ، فهجم أصحاب تيمورلنك  
عليهن وربطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف . ثم صارت الأبقار تفتض من غير  
تستر والخدرات يفسق فيهن من غير احتشام ، وبذل عساكر تيمورلنك السيف في عامة  
حلب وأجنادها ، حتى امتلأت الجوامع والطرق بالقتلى (٣) .

ومع أن القتال استمر أربعة أيام ، فإن تيمورلنك لم يستطع الاستيلاء على قلعة  
حلب (٤) ، التي نقل إليها الناس أموالهم ، والتي كافع فيها سودون ودمرداش كفاحاريرا ،  
حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة . ولكنهم بعد أن اطمأنوا  
إليه أمر بحبسهم ، ثم سبق إليه من بقى من نساء حلب سبايا ، وبعد أن أخذ الأموال  
والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه ، أباح النهب والسلب والقتل  
فيهن بقى من أهل حلب ، ثم أمر بقطع الأشجار ، وهدم البيوت ، وإحراق المساجد حتى  
اجافت حلب وظواهرها من القتل بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لا يجد الشخص  
مكاناً يمشى عليه إلا وتحت رجله رمة (٥) . وتسلى تيمورلنك بزموس القتل وفجعل  
منها منائر علة مرفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً (٦) . وقبض  
تيمورلنك على سودون ودمرداش ، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج  
عن أطمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقى الأسرى . ولكن السلطان فرج  
برأمرأه كانوا في واد آخر .

وينبى ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعزوها إلى سوء تدبيرهم  
مع قلة عدد عساكرهم في وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى  
فقدت بقيتهم الثقة في قدرتهم على الدفاع عن المدينة . أما العسقلاني فيرى أن غياب

Thoumin : Hist. De Syrie p. 245 (١)

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٢ .

(٤) تسمى هذه القلعة الشهية لبياض حجرها - راجع الأنصاري : نخبة الدرر ص ٢٠٢ .

(٥) القرطبي : أخبار الدول ص ٢٠٨ .

(٦) Yazdi : Op. Cit. VIII p. 176

دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكي خارج حلب ، إذ أن دمرداش أثار الفتنة بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعيم أمير آل فضل ، فغضب نعيم من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك ، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التي لم يكن يستهان بها في مثل هذا الطرف (١) .

وبعد أن أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها مظلمة بأثار الحريق ، وسار قاصداً دمشق ، ومرا ابنه ميران شاه بمدينتي حماه وحمص واستولى عليهما ، وقام بنفس الدور الذي قام به والده في حلب (٢) . ثم احتل تيمورلنك بعلبك التي دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها (٣) .

وأما أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها ، وأنه في طريقه إليهم ، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها (٤) . وتحمس المخلصون منهم في الدفاع عن مدينتهم ونادوا في الناس بأن « من سافر نهب (٥) » وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو ، وهكذا بدأ الناس في تحصين المدينة ونصبوا الخنادق على قلعتها ، والمكاحل على أسوارها .

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميمهم راثماً وإيماناً قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان . وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخنادقها نائبي الحديد وهمّ النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحاً (٦) .

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضعاف الكثير من الفرص لإبعاد الخطر التيموري ، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامي لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك الذي وتمكنت عساكره في مشاهد البلاد التي احتلها في سورية ومزاراتها ومدارسها . ودور الحديث بها والرباطات والجوامع والمساجد ومواطن العبادات وأطلقوا فيها النيران . وأهانوا المصاحف وكتب العلم والحديث ورموها في الطريق (٧) . ولهذا لم يكدر الشيخ عمر البلقيني والقضاة يركبون وينادون في الناس « بالجهاد في سبيل الله تعالى

(١) المسكوفي : إنباء النبرج ١ ص ٥٣١ .

(٢) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٩٠ ب .

(٣) Yazdi : Zafarnama II p. 180

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩٥ .

(٥) ابن تيمري بردى : التاج الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(٦) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ .

(٧) البساطي : مقتاتح الأسرار ومصابيح الأنوار ورقة ١١٦ ب ، ١١٧ أ .



لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأغرب الدور والجوامع والمساجد، وجعلها اصطبلات للدواب، وأنه قاصدكم تخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم<sup>(١)</sup> ريسى حريمكم<sup>(٢)</sup> (١)، لم يكذب ينادى هؤلاء بهذا النداء حتى انطلقت ألسنة الناس بالوقوع بأعيان الدولة، مما دفع الأمراء إلى سرعة تعبئة الجيش<sup>(٣)</sup> والالتجاء بالسلطان إلى سورية وذلك في ٢٠ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ - ديسمبر سنة ١٤٠٠ م (٢).

ومن العجيب ألا يتقدم الجيش بسرعة لإنقاذ دمشق بل إن السلطان والأمراء حين وصلوا إلى غزة أقاموا بها أربعة أيام انتظاراً لأخبار جديدة (٣). وهناك عرض الأمير تغرى بردى - الذى عين أخيراً نائباً لدمشق - خطة لمواجهة تيمورلنك خلاصتها أن يبقى السلطان في غزة بعساكره ويتوجه تغرى بردى إلى دمشق ليحرض أهلها على القتال، في وقت تمتاز دمشق بمصانئها، ووجود مئونة بها تكفى مدة طويلة لا يستطيع تيمور معها بعساكره الكثيرة الوقوف أمامها؛ فلما أن بلغ دمشق ويتوجه نحو السلطان إلى غزة فيتوغل في البلاد ويصير بين عسكرين، ولما أن يعود إلى بلاده منهزماً لقلّة ما في طريقه من المؤن بسبب خراب البلاد التى مرّ بها، وهنا يتمكن السلطان من تتبع أثرهم وهزيمتهم (٤).

غير أن الأمراء لم يطمئنوا لخطة تغرى بردى؛ ولعل هذا لأنه كان رومياً، ولم يستطع السلطان بدوره السيطرة على الموقف بسبب ضعف شخصيته وكثرة الآراء، فانتقم جيش السلطان إلى قوات مختلفة اتجهت كل منها في ناحية دون خطة موضوعة (٥).  
 ١٤٠١ م فلان الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمر دأش نائب حلب، الذى تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش في حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً في الجراكسة، وأنه لو ثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك (٦).

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق

(١) ابن قاضي شهبه: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٣ ورقة ١٧٥.

(٢) ابن تغرى بردى: التاجم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) Fischel: Ibn Khaldun And Tamerlane

(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٥) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p 115

(٦) ابن قاضي شهبه: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ - ١٧٥

الذين أخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته . وعسكر فرج بجيشه في سهل قبة يلغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق ؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنه — إحدى قرى دمشق — ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي . وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة (١) . وفي المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكي ، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبذته خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السلطان فرج مرة أخرى في طلب الصلح على أساس إطلاق أطمش ، وسك النقود باسمه ، وذكر اسمه في الخطبة (٢) . واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك في هذه المرة على غير العادة بالخفاوة والإكرام اللائقين . وبعد عرض عسكري كبير أمام رسول تيمورلنك ، أعيد الرسول محملاً بالهدايا ومعه رسول السلطان فرج حاملاً رده على كتاب تيمورلنك الثاني ، الذي وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطمش في ظرف خمسة أيام ، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الودع بعد هذا (٣) .

ولم يكذ تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف ، فزحف على غوطة دمشق (٤) بعد ذلك بعشرة أيام ، فسلمت له دون قتال . وعقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة ، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي ، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط (٥) . وعاود الأمير تغرى بردى النصيح في ضرورة قبول الصلح في هذه الظروف الحرجة ، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة . فكتب السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذي قام به بعض الأمراء في الليلة السابقة ١٩ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ — سنة ١٤٠١ م ، وأنه سيطلق من عنده في اليوم التالي . غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً ، ولا سيما أن عيون تيمورلنك أوقفوه على

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184 انظر الملحق . رقم (٥) ص ١٧٣

(٣) شرف الدين علي يزدي : طفرنامة ج ٢ ص ٣١٧ — انظر الملحق رقم (٦) ص ١٧٤

(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفي أطرافه جبال عالية وترويه

مدة أشهر زاجع Le Strange : Palosjine p. 33

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٥ .

حقيقة الحال في داخل دمشق مما جعله يرقص موافقة السلطان فرج ، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة (١) .

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل في النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه ، ومن الممالك السلطانية ، وتبعته جماعة أخرى ، وهرب الجميع إلى القاهرة ليلسطنوا الشيخ لاجين الجركسي ؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج وتبعهم لمواجهة هذه الفتنة ، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيemor ، وذلك في ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (٢) .

وعرف تيمورلنك هذه الحقيقة فنشر الدعر في صفوف الجيش المملوكي حين يقبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا البأ ، كما أضرم نارا في أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكي أن عساكره ملثوا جميع نواحي المدينة بقدر أماكن النار (٣) .

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ - يناير سنة ١٤٠١م - أدى إلى تسلي يقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم ، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمورلنك لهم (٤) . وتتابع دخول القارين من الممالك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة ، وهم في أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له في الطريق من الجوع والعري (٥) .

أما العساكر الذين بقوا في داخل دمشق فلأنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم ، فلأنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها ، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال دون أن يعلموا برحيل السلطان (٦) . ولكن تيمورلنك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حين علم برحيل السلطان . غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال ، حتى رده بعيداً عن السور وانخدع وأسر عدد كبيراً من جنده ، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف (٧) . وإزاء

(١) Yazdi : Op. Cit. p. 192-192. انظر الملحق رقم (٧) ص ١٧٥

(٢) Ibn Arab Shah : Op. Cit p. 141

(٣) دحلان : الفتحاح الإسلامية ج ٢ ص ٥٩ ..

(٤) ابن يميني : تاريخ بيروت ص ٢٥٢ .

(٥) السقلافي : إنباء الفرج ج ١ ص ٥٢٣ ..

(٦) Ibn Arab Shah : Op. Cit. p. 141

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٨ .

تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمورلنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح ، ونجح في هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلي للمفاوضة على إرأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم (١) .

وحين اجتمعت البعثة بتيمورلنك عرض عليهم تيمورلنك أنه لا يريد سوى أنه يخرج إليه أهل دمشق «الطغزات» (٢) . ثم يعود ، وخدع ابن مفلح بكلام تيمورلنك وعاد ليفي عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال (٣) . وعلى الرغم من أن بعض الأمراء في قلعة دمشق حاولوا جاهدتين منع ابن مفلح من نشر رأيه ، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل . فضلاً عن أن أكثر الأهالي حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمم الواقع .

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج «الطغزات» من باب النصر منعه نائب القلعة ، وهدد بإحراق المدينة . فأخرجوا الطغزات من السور ، واتجهوا إلى معسكر تيمورلنك الذي رحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق (٤) .

وحين قرى الأمان بالجامع الأموي فتح الباب الصغير (باب المدينة القليل) ، ثم طمأن تيمورلنك الناس حين بعث بأحد أمزائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية ، وصلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق (٥) .

وانتقم تيمورلنك من المدينة أبشع انتقام؛ فلم يكتف بأنفه ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق ، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافي المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش ، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها (٦) . وبعد أن قسم

---

(١) Fischel : Op. Cit. p. p. 33—34

(٢) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسمة» ويسمون ذلك «طغزات» والطفز باللغة التترية معناه تسمة . راجع ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٣) القرمان أخبار الدول ص ٢٠٩ .

(٤) ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٥) ابن الهادي : ثغرات الذهب ج ٧ ص ٦٤ .

(٦) المقرئزي : السلوك ج ٣ مجله ١ (مصورة) ورقة ٢٧ .

المدينة على أمرائه ، ونزل كل أمير بقسمه ، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين ، وغمّ أنف الفرد بخرقه فيها تراب ناعم ، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهر ، وإذا أشرف على الهلاك ، يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً . وتتخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك ؛ فيشاهد الرجل المعذب امرأته وأبنته وهي توطأ ، وولده وهو يلاط به ، ويصرخ هو من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة والواط . وكل ذلك من غير تسرّ في النهار بحضرة الملأ من الناس... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب ، إذ أخذ الثثار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال بيكتفي الرجل ، وأخذوا يلون بعصاه حتى تنخلع كتفاه . واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣ هـ - فبراير سنة ١٤٠١ م بعد أن هلك في هذه المدة من أهل دمشق خلق كثير (١) .

وحين عزم تيمورلنك على ترك دمشق ذلك عالم الحضارة فيها ، وأشعل النار بها في يوم عاصف ، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام ، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموي وزالت أبوابه (٢) . وغنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها . وبالخلاصة أن تيمورلنك ترك دمشق أطلالاً بالية ، وفيها أطفالاً معرضين للجوع والموت ، سواخذ معه أشهر الفتنين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته (٣) .

على أن غزو تيمورلنك لسورية تمخضت عنه عدة نتائج ، أولها ما أصاب مدن سورية بوقراها من نقص في السكان ، فضلاً عما أصابها من الخراب ، حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة في إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمورلنك (٤) ، وثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج (٥) . وثمة

(١) تقيس المراجع والجزء والورقة .

(٢) ذكر على شرف الدين يزدي أن سقوف الجامع الأموي احترقت مصادقة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تمتد إحراقها وأيد هذا الرأي شاهد عيان هو الرحالة الهانزاري Schiltberger الذي ذكر أنه بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور

في النار - راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23

Hitti : Hist. of The Arabs p. 701 (٣)

(٤) راجع تقيس للشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢ ، ٥٧ .

Huart : Hist. Des Arabes. TII p. 94 (٥)

نتيجة فائقة لغزو تيمورلنك لسورية هو نشاط طوق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار في طرق وسط آسيا وغربها (١) . أما صدى غزوة تيمورلنك لسورية في القاهرة فلأنه دوى عند عودة السلطان فرج يمشيه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة ، إذ ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له ، وما لبثت أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته ، فانتشر الرعب بين الناس وزاد سوء الأحوال الاقتصادية ، لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمورلنك على القاهرة (٢) . وعلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشاً لشدة الحاجة إليها ، على حين هبطت أسعار المتقولات بسبب كثرة المعروض منها . وما زاد الحال سوءاً أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمورلنك ، وفرض على سائر أراضي مصر وأوقافها ضرائب كثيرة ، ثم عاد فجئى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً ، وأخذ يلبغا السالى استاداره يهاجم القنادق والحواصل في الليل ، فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه ، وأخذ نصف ما يجده فيها ، وإذا لم يجد صاحب المال ، أخذ جميع ما يجده ، كما استولى على ما وجد من حواصل الأوقاف (٣) . وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لا يستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض (٤) .

على أن تيمورلنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني . على أننا نلاحظ من حركات تيمورلنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه ، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة في أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له . ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكى ودك معالم الحضارة في سورية ، اتجه إلى الشمال ليفاجئ\* بايزيد قبل أن يفاجئه . ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع ، إذ وجد تيمورلنك السلطان بايزيد يقفًا لحركاته ، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد (٥) . ومن هناك بدأ يتمس المعاذير للاستخدام بالسلطان العثماني ، فأرسل تيمورلنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له ، وأن أى تعد على أملاكه

(١) Ibid : p. 115

(٢) ابن مبرشاه : عجائب المقنور ص ١٨٣ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٩ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦٥ .

يعتبر تعدياً على أملاكه هو (١) . ثم بعث تيمورلنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرا يوسف التركاني اللذين احتجيا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه. وإذا أصبح الجيش العثماني قوة لا يستهان بها خاصة بعد انتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ م فإن بايزيد تحدى تيمورلنك ورد عليه رداً خشناً مادفع تيمورلنك إلى الإغارة عليه في سبعمئة ألف فارس وثلثمئة ألف من المشاة وذلك في سنة ٨٠٥ هـ - يولييه سنة ١٤٠٢ (٢) .

وحين وصل تيمورلنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه أمانويل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية ، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من المشاة والفرسان . كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحرب (٣) . ولم ينتظر تيمورلنك مساعدة هذا أو ذلك كما أنه لا يوجد ما يشير إلى عقد محالفة مع الغرب ، بل تذكر المصادر أن تيمورلنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد ، واستخدام الحيلة في سيره عبر الجبال إلى أنقرة في طريق غير الطريق التي توقع بايزيد أن يسير فيها تيمورلنك (٤) ، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة ، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده ، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جحافل تيمورلنك (٥) . ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه في أسر تيمورلنك (٦) . وصار يبدو أن الامبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية ، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التي استولى عليها العثمانيون (٧) .

ولانتصار تيمورلنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية - وهما القوتان اللتان

(١) De Clavija : Op. Cit p. 73-74

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦ .

(٣) De Clavijo : Op. Cit. pp. 76-77

(٤) Ibid. pp. 76-77

(٥) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ - ٥١ .

(٦) نشرت بعض المراجع قصة حبس بايزيد في قفص حديدى وأصبحت هذه القصة غير مقبولة الآن إذ لا يوجد في المراجع الفارسية ما يشير إلى هذا بل على العكس تشير إلى إكرام تيمورلنك لبازيد ويرى Gibbons أن الذى دعا بعض المؤرخين إلى ذكر هذه القصة ماورد في عجائب المقدور لابن عربشاه قوله « وقع ابن عثمان في قفص ، وصار مقيداً كالطير في قفص » راجع غوانديمير : حبيب السير ج ٣ ص ٦٠ .

(٧) Gibbons : Foundation of the Ottoman

Empire, p: 225

Oman : The Byzantine Empire, p 334

حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامي آنئذ - أثر كبير في محاولة الغرب النيل منهما، وذلك حين أرسل هنرى الثالث ملك أسبانيا في يولييه سنة ١٤٠٢م سفارة سياسية مكونة من Pelayo De Satomayor ، Fernando De Palazuelos لدعم علاقات بلاده مع تيمورلنك . وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة ، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضي ، وحمله خطاباً ودياً وهدايا من جملتها جواهر وجوار إلى هنرى الثالث . وشجع هذا الوداد هنرى الثالث على محاولة الارتباط بأى نوع من التحالف مع تيمورلنك فأرسل في ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣م بعثة أخرى برئاسة De Clavijo (١) .

غير أنه برغم إكرام تيمورلنك لهذه البعثة فإنه لا يوجد ما يشير إلى أى تحالف رسمى بين الشرق والغرب . ويبدو أن السبب هو مرض تيمورلنك في اليوم التالى لوصول De Clavijo فلم تتمكن البعثة من مقابلة تيمورلنك مرة أخرى (٢) .

على أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمورلنك على الدولة العثمانية ثم انسحابه في نوفمبر سنة ١٤٠٢م ، وهى ضياع أرمينية من أيدى السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء ، والشاة البيضاء ، ( قراقويونلو ، آق قويونلو ) (٣) .

وفي طريق تيمورلنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنباء فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطمش ، وأنه إذا قدم عليه ، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المالك المأسورين . وأما إذا امتنع السلطان فرج عن تنفيذ مطالبه ، فإنه سيعود إلى تخريب مصر (٤) . وحسب الموقف طلب السلطان فرج أطمش من سجنه بالقلعة ، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطمش عليه أن يكون عيناً له عما يحدث من أمور تيمورلنك فضلاً عن إعادته بما للسلطان فرج ولوالده من أفضال عليه (٥) . فخلع عليه السلطان فرج

(١) De Clavijo pp. 76-77 هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره في أنقره إلى هنرى الرابع ملك إنجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجارى مع بلاده ، ورد هنرى الرابع عليه بالتهنئة بانتصاره على العثمانيين وأصول هذين الخطابين موجود في Vide Original Letters Illustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis PP 56-58.

(٢) صادف وصول بعثة De Clavijo وصول بعثة من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومنها هدايا - راجع Le Strange : Clavijo Embassy To Tamerlane pp. 9-12

Kevork : Armenia p. 101 (٣)

(٤) ميرخواند : روضة الصفا ج ٦ ص ٢٤٦ انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٨ من ١٧٥ .

(٥) ابن قاضي شهاب . ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢٠٤ .



وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم وأطلقه مصحوباً ببعثة من أمراءه (١) .

وهكذا تم الصلح المهيمن بين السلطان فرج وبين تيمورلنك . ولوقدر للبلاد سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ويحالف السلطان العثماني وغيره من أمراء الشرق الذين فاضوا السلطان فرج في أمر تيمورلنك قبل انهيار جمهرة جيوشه على بلادهم ، ولو نظم الأمراء قواتهم واتفقوا في هذه الظروف الحرجة لأمنت البلاد عادية تيمورلنك ، بيد أنه لم يكن بمصر رجل سياسي بعيد الغور في السياسة مثل السلطان برقوق ، بل أصبح الحكم للمالكة الطيبة الثانية « القرانيس » من عماله ، ولأن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون البلاد بسبب جهلهم إلى الخراب . والواقع كذلك أنه لو بقي السلطان فرج في دمشق مدة أخرى لرحل تيمورلنك إلى بلاده بسبب قلة مئوته .

ولم تقف علاقات تيمورلنك بدولة المالكة الثانية عند هذا الحد بل إن تيمورلنك حين استقبل أطمش في المحرم سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج ، وعرض فيه تيمورلنك رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية ، فشكر الأمراء على إرسال أطمش ، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج ، إذ أرسل إليه هدية اشتملت على علمين لونهما أخضر وخضرة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج نائبه على الديار المصرية والشامية . ونتج عن هذه الإساءة إلى السلطان فرج أنه حين عرضت عليه الهدية أمر رسل تيمورلنك بالتزول في دار الضيافة دون أن يتخلع عليهم ، ومنع الناس من الدخول إليهم ، ثم بعد أيام أعلن رفض قبول هدية تيمورلنك ، وأعاد رسله إليه على هذه الصورة من الاحتقار (٢) .

ولم يفتأ تيمورلنك يظهر عدم تقديره للسلطان فرج إذ أرسل إليه في ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذي عينه تيمورلنك حاكماً على بغداد من قبله . وذكر تيمورلنك في خطابه أنه أرسل إليهما ولده ميران شاه في مائة ألف فارس فهربا منه . وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين القارين ، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه (٣) .

وليس أدل على ضعف فرج من أنه حين قبض نائب دمشق على أحمد بن أويس وقرا يوسف ، كتب السلطان فرج خطاباً لتيمورلنك بأن الاثنين تحت طلبه ، ثم بدأ

(١) المعقلاي : إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣٨ .

(٢) انظر المعقلاي : إنباء الغمر ج ١ ص ٦٠٤ ، ٦٢٨ .

(٣) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢١٣ .

السلطان فرج وتيمورلنك يتبادلان الهدايا كما أن تيمورلنك قبل أن تتركه المنية آخر سنة ٨٠٧ هـ - يناير سنة ١٤٠٥ م أرسل إلى السلطان فرج عدة هدايا واعتزلته عن اضطرابه إلى أكتساح بلاده (١) .

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلى الذى تمثل فى إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة ، فإن العامل الخارجى الذى تمثل فى غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى ؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة فى وقت الحروب حتى انتصرت على المغول فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٧ م ، وفى مرج الصفر فى رمضان سنة ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ م ، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبية سبب هزيمتها أمام التتار . وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسبای الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص فى حملات كسبت نصراً مؤزرأ وضع حداً للأخطار التى تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة (٢) .

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامى . وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودهما متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين الهدايا مع صاحبه (٣) . ثم زاد فى أوامر هذه الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر . وكانت الدولة العثمانية البائدة بالسعى لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة المماليك الثانية ، لتعارض مصالح العثمانيين مع التيموريين فى السيطرة على آسيا (٤) . والبدية التاريخية لهذا الاتصال هى سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثمانى رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق ، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين ، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات . لردّه (٥) . وبلغ من ثقة السلطان برقوق فى نفسه وبعد نظره أنه لم يرتبط بتحالف مع السلطان العثمانى ، وإنما أظهر استعدادة لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثمانى . وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته فى الوقت.

(١) نفس المرجع . والجزء ورقة ٢١٧ .

(٢) راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع .

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩ .

(٤) Malet Et Isaac : l'Hist. Du XIV and XV and XVI

siècles, P. 210.

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ ب .

الذي لم يكثر فيه بخاطر تيمورلنك بدليل قوله «لاني لا أخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدني عليه وإنما أخاف من ابن عثمان» (١) . ويبدو أن برقوق كان على حق في اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة ٧٩٣ هـ - سنة ١٣٩١ م على قيصريّة وقبض على صاحبها وهي وقتذاك في حماية السلطان برقوق . غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦ هـ - سنة ١٣٩٤ م جعل بايزيد يبعث باعتذاره إلى برقوق وهو في سورية كما أرسل مفاتيح المدينة وهدية قيّمة (٢) . ولم يتأخر السلطان برقوق في قبول الاعتذار ، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكني إلى بايزيد ، وعقد الصلح بينه وبين صاحب قيصريّة (٣) . ووجد السلطان بايزيد في صداقة السلطان المملوكي خير معين له على دفع الخطر التيموري . فرد في نفس السنة ٧٩٦ هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليّة وكتاب حذر فيه السلطان برقوق من خطر تيمورلنك ، وأنه وضع تحت تصرفه مائتي ألف فارس ، كما سأل السلطان برقوق في تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداويه (٤) . غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثماني وإكرام رسله ثم أرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير ، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان (٥) .

وفي أواخر سنة ٧٩٦ هـ - بعث بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة . ومع أنه لا يوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب بايزيد الذي كتبه حوالي سنة ٨٠٣ هـ - سنة ١٤٠٠ م إلى تيمورلنك ذكره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة» الذين لجأوا إلى مصر ، ليذكر هذا الحاكم الفظ أنه لا تزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أو على الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التي يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك (٦) .

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م حين وصل إلى القاهرة ، رسل السلطان بايزيد ومعهم هدية للسلطان برقوق ، منها مائة أسير من الفرنج القرنيين

(١) المسقلاقي : إنباء النمر ج ١ ص ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المسقلاقي : إنباء النمر ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٠ .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٤ أ .

(٦) Arnold : The Caliphate p. 105, D'Oshosson : Tableau De (١)

L'Empire Othoman VI p. 233-234.

والإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في البحر (١) ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بـجانتصار بايزيد الحاسم على الفرنج في نيقوبوليس سنة ٨٧٩٨ هـ سنة ١٣٩٦ م (٢) .

يبد أن العلاقات بدأ يشوبها السوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر وأغار في أواخر شوال سنة ٨٠١ هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة (٣) . وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في ترعم العالم الإسلامي، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة، كما دل على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسية بين البلدين في تلك الظروف العصيبة التي أحاطت بالدولتين، وصار لهذا الخطأ أثره في نفوس أمراء مصر، بل دليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية، وأرسل بايزيد يطلب محافضة السلطان فرج لصعد خطر تيمورلنك رفض الأمراء الذين بيدهم الأمر محافضته، مذكرين إياه بإغاراته على ملطية سنة ٨٠١ هـ. ولم يدر السلطان فرج والأمراء أنهم بانتهاجم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمنها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة، وهي الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسائل مع جيرانه حتى غير تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً.

ولذا شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثماني والمملوكي زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م، وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التي لحقت به من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك في واقعة أنقرة التي أسرفها بايزيد، والتي أباد بعدها عدة مدن عثمانية (٤) . وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانيين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية في شبه جزيرة آسيا الصغرى، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسره كانت مخجلة حقاً، حتى إن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦ م) إما مصادفة أو بناء على خطة مرسومة لمدة ست سنوات حتى واقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ م لتحطمت قوة العثمانيين إلى الأبد، وربما تحقق حلم اتحاد الغرب بالشرق الأقصى ضد السلطنة المملوكية، ولأمكن استعادة الصليبيين للأراضي المقدسة (٥) .

(١) المسقلاني: إنباء الغمر ج ١ ص ٤١٤ .

(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣ .

(٣) العمى: عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

(٤) الزياتي: الترجمان المغرب ورقة ٩٠ .

(٥) راجع: Atiya: The Crusade In The Later Middle Ages :

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني أضاع هبة كله منهما في نظر الآخر . وأخرت هاتان الكارتان اللتان منيت بهما الدولتان الاصطدام بينهما حوالي قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء . غير أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثماني محمد بن بايزيد يتبته لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوه تيمورلنك ، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م وبدأ الطرفان بتبادل الهدايا في كثير من المناسبات (١) .

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧ هـ - يناير سنة ١٤٠٥ م أزال منافساً خطيراً عن طريق العثمانيين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم في الشرق . وبدأ ميزان القوى في الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية . وأصبحت صداقة الدولتين صورية ، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر إذ صار كل واحد منهما يحمي الدولتين . نصر أو فتح قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة (٢) وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهنية والتبريك ، حتى إذا شعر السلطان العثماني بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وأزالها سنة ١٥١٧ م .

وكما واجهت دولة المماليك الثانية في بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق ، فلإنها واجهت مشكلات أخرى من جانب الغرب ، مرجعها أن التجارة في البحر المتوسط أصبحت احتكاراً للبندية التي تخلصت من منافستها جنوا (٣) . واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة . ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونية ومن انضم إليهم من الروادسة والقبازصة . ومن انضم إليهم من الروادسة والقبازصة . وشغلت أعمال القرصنة التي قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق . ومن ابنه فرج . ففي جمادى الآخرة سنة ٧٨٥ هـ - يولية سنة ١٣٨٣ م هاجم الجنوية صيدا وببيروت ، ونزلوا إلى البر (٤) . فاتجه اينال اليوسفي أتاك دمشق إلى الساحل ، وحاول

(١) دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ١٩٩ وما بعدها .

(٣) Kirk : A short. Hist. Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال

القرصنة من جانب القبازصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠ م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم : بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البنددية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية . راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية : ص ٨٢ .

(٤) ابن ينجي : تاريخ بيروت ص ٢٢٩ .

أن يقذف هؤلاء الفرنج في البحر حين احتموا بمراكبهم ، لولا أن أسرع لنجدتهم  
الفرنج المقيمون في بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم (١) .

وفي الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوبية لنهر يرب  
بضائع في مراكبهم من الإسكندرية (٢) . ويبدو أن فشل هؤلاء الجنوبية جعلهم يتجهون  
إلى مهاجمة نغرى رشيد ودمياط . غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرقة في نغرى رشيد  
بقيادة الأمير أحمد بن يلبغا الخاصكي ، وفرقة أخرى في نغرى دمياط بقيادة الأمير ايدكار (٣)  
فتغلروا على هؤلاء الجنوبية غزو رشيد ودمياط ، ولذا أعادوا الكرة على نغرى بيروت  
وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطرت نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب  
في طردهم (٤) .

وحين تكرر هجوم الجنوبية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق  
سنة ٧٨٦ هـ - ١٣٨٤ م إلى الأمير الطنينا الجويني ببناء أغربة وشواني لغزو الجنوبية في  
بحر الروم . غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب  
على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧ هـ سنة ١٣٨٥ م ، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول  
المملوكي من قتل عدد كبير من الجنوبية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم ، وقيل إن ثلاثة  
بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسرهم . وبعد هذا الانتصار وصلت  
الأغربة إلى بولاق في جمادى الآخرة سنة ٧٨٧ هـ - يونيو سنة ١٣٨٥ م بالأسرى  
والغنائم حيث عرضوا على السلطان في اليوم التالي من وصولهم (٥) .

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوبية لم تؤثر في حصول بعض تجارهم على  
ترتباطات تجارية وقنصلية (٦) . ولذا فإن الجنوبية لجئوا في سنة ٧٨٨ هـ - سنة ١٣٨٦ م  
إلى مصالحة السلطان برقوق (٧) . ولم يتأخر السلطان في قبول الهدايا منهم حرصاً على  
مصالحة التجارية في البحر المتوسط .

غير أن الجنوبية عادوا سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال برقوق

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قم ٢ ورقة ٢٨٨ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ .

(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ (خطية) ص ٤١٦ .

(٥) المسقلائي : إنباء النمر ج ١ ص ٢٢٤ .

(٦) Lammens : la Syrie, VII p. 36

(٧) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٦٣ .

بالتزاع الداخلى مع الترك - إلى أعمال القرصنة ، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة في المياه السورية في مراكز مشحونة بالبراكسة الذين جلبوا من بلادهم ، ومن بين هؤلاء البراكسة أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه . فهاجم الجنوة مراكز السلطان، وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من البراكسة ، فثار السلطان برقوق ، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج . سواء كانوا تجاراً أو قناصل أورعيا ، ونهض نائب الإسكندرية في القبض على عدد كبير منهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١) .

ولذا تخرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوة وبين السلطان حتى اتفق الجنوة على أن يطلعوا من أيديهم من الأمرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم ، وأسرع الجنوة بتنفيذ الاتفاقية ، وقدم بالأسرى البراكسة تاجر السلطان الخاص الخوجا على بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق في آخر ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م (٢) .

وفي سنة ٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م تحرك أسطول مكون من اثنتى عشرة سفينة جنوبية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا، وهاجموا جميعاً ميناء طرابلس ، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركباً واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غرباً حيث استولوا على جزيرة Jerba في خليج قابس التابعة لأبي العباس أبي بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهديّة وحاصروه ، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج ، وقتلوا الكثيرين منهم (٤) .

وفي عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانئ الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلى في سنة ٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بال بضائع المعدة للتصدير لمصر ، وأسروا من فيها ، وتوغل هؤلاء القراصنة في إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالي تمكنوا من اعتقالهم . وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجارية بالسلطين فإن هذا المركز تعرض للضعف في سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م حين تقدم اندريه جستينان فحصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج ، عرض فيها مدى جهود البنادقة في إنعاش تجارة

(١) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٢٢ .

(٢) نفس المرجع والمجلد ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) Atiya : Op. Cit. p. 398

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٥١ - ٦٥٣ .

(٥) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥ .

الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة ، وأنهم يرغبون هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء . ولم يكن قنصل البنادقة موقفاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه ، وأنهم ( أى البنادقة ) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد « بقوة الله » فإنهم في هذه المرة سيكونون وذو مكانة مرموقة . أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكتراثه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده ، لأن الغرب المسيحي منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من « بابا على حين اتحد العالم الإسلامي في اعترافه بشخص الخليفة الواحد » (١) .

أما جنوا فلأنها استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦ هـ ، وفي هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبارصة ، وذلك حين تحرك De Boucicaud حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها ، وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا . غير أن غرض De Boucicaud لم يكن كذلك ، بل إنه حزم على ضرب الإسكندرية ، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيخان ملك قبرص وعقد معه الصلح (٢) . بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaud منذ أن وصل إلى رودس ، وأخذ أهبطه لصد الهجوم . أما De Boucicaud فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية — ذرا للرماد — سفينة بها سفيرين من لدنه أعلن أنها جاءت لعقد الصلح مع السلطان . وحين علم السلطان بهذا التبا أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين ، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaud إلى سفيره الآخر بالعودة إلى رودس . وأدرك De Boucicaud عدم جدوى هذه المفاوضات فأتجه بأسطوله ، وهاجم ميناء انطاكية في آسيا الصغرى ، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية . ولكنه بعد أن قام بعملياته الحربية في ميناء انطاكية عاد إلى فاما جوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية ؛ على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاما جوستا . غير أن حملته فشلت في الاستيلاء على الإسكندرية في أغسطس سنة ١٤٠٣م بسبب استعدادات السلطان فرج (٣) . ولم تبخر جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال في شوارع الإسكندرية مع الفرنج ، وكذلك فشل في إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية (٤) .

Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XV S. pp. 83-84 (١)

De la ville de Roux : La France En Orient, p. 422. (٢)

Piloti : Op. Cit. pp. 89—90 (٣)

Ibid : p. 90 (٤)



على أن De Boucicaud لم يكتف بفشله في الإسكندرية بل جرب حظَه في طرابلس، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك، ولكنه فشل فيها حين هاجمها في ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣ م، فرحل إلى بيروت (١). وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من المسلمين بل من ناحية متاجر البنادقة. وبعد أن نهبها رحل من بيروت مسرعاً إلى فاما جوستا غير أنه في الطريق اصطدم بأسطول للبنادقة، الذى انتقم للرعايا البنادقة في بيروت (٢)، وهكذا عاد De Boucicaud بعد فشله اللزيع في القيام بعمل واضح من أجل لإعادة نشاط جنوا التجارية في منطقة شرق البحر المتوسط (٣).

على أن القبارصة — وأعني الملك يوحنا لوزيئنان بالذات — يعتبر مسئولاً عن الهجوم الذى شنه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaud بأربع سفن قهرصية (٤). كما أنه في المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦ م وعد بتعويض التجار البنادقة في المدينة لما أصابهم من الجنوة (٥).

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً في السعى لعقد الصلح مع السلطان فرج رغبة في إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية. وفي هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧ م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الجنوة في مصر سيقبض عليهم جميعاً (٦).

وكما عادت التجارة مع جنوا، فلما عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨ م، وتوسط في هذا الصلح بيلوتي Piloti التاجر الكرتى بمصر، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية. وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وببلادهم من عبثهم (٧).

(١) كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) Piloti : Op. Cit. pp. 29

(٣) De Bouard : La France Et L' Italie p. 268

(٤) راجع المقرئى : السلوك ج ٣ (شمسية ورقة ٤١)

(٥) Delaville La Roulx : Op. Cit. VI pp. 475—477

(٦) Piloti : Op. Cit. pp. 94—95

(٧) تعرضت الموانئ المصرية لهجمات القراصنة القطلونيين، ونهبوا السفن الراسية فيها، وكثيراً ما لجئوا بأهلهم إلى قبرص وبعض جزر البحر ليحميهم وخاصة جزيرة ناكسوس. وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧ م أن هاجم القرصان بطرس القطلونى سفينة تجارية مصرية محملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى جاك كريسبوس في جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية. وغضب السلطان فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها =

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة الممالك الثانية (١) ، واعتبروا سلاطينها ورثاء دولة الممالك الأولى في « ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين » (٢). فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية (٣) ، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة الممالك الأولى في صد الأخطار الصليبية التي تعرض لها المغرب كثيراً .

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ - سنة ١٣٨٢ م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية . ولذا احتاج السلطان برقوق للجياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق . ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصي بأولاد ابن خلدون رغبة في عودة ابن خلدون إليه ، أرسل إليه السلطان برقوق في ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ - ١٣٨٤ م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر (٤) وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد . غير أن سوء الحظ صادف السفينة التي وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبي العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق ، وأعادته إلى سلطانته بهديه من الملابس الفاخرة (٥) .

وظلت علاقات الورد المتصلة بين دولة الممالك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه ، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢ هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة . وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه . واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة (٦) .

= وعائنه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى . وصادر فرج مقيمة البندقية كانت راسية بجيئة الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس ، ووسط ييلوق في هذه المهمة ، وسحين نجح كتاباً فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهرياً بدون ضرائب .

راجع : Miller : The Latins In The Levant : p. 399 .

(١) ابن أبي السرى : عيون الأخبار ونزهة الألبصار ورقة ٢٩١ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٣) Piloti : Op. Cit. pp. 57-87 .

(٤) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ - ٢٥٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٥٢ .

وتنظر أكثره حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول «استمر وده لبلاد المغرب ، حتى إنه في سنة ٧٩٣ هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن علي بن غانم شيخ أعراب المغرب بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سلم — من ملوك بني مرين بفاس — سنة ٧٧٥ هـ — ٧٩٦ هـ (١) ، كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتابا شفع له فيه ، وبعث إليه بهدية ، كما أوصاه بالقتناء الخيل له ، وقبيل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته ، وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق ، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦ هـ سنة ١٣٩٤ م ، وظلت الهدية حتى مات أبو فارس وتولى أخوه أبو عامر سنة ٧٩٩ هـ — سنة ١٣٩٧ م (٢) . فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن علي . وحين أبطل وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشتري له الخيل . فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلي ، وكتب كتابا إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص سلطان تونس ، وكتاباً إلى سلطان تلمسان من بني عبد الواد ، وكتاباً آخر إلى سلطان فاس . وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقصي ، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية قاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من اللثج (٣) . وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانه أبي زيان بن أبي حمو ، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانه من أحسن الجياد . ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان ، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه (٤) .

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز ظلاً ، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز (٥) . وجرت العادة أن يولي السلطان المملوكي على مكة أميراً من أهلها وله حق عزله إذا ثبتت مخالفته لأوامره . بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده ، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية . واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمير قوي يدين له بالطاعة ، حتى يضمن أمان طرق التجارة في البحر الأحمر . وفي بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان وابني عمه

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) ابن خلدون : الشريف باين خلدون ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٥) Piloti : Op. Cit. p. 41

حسن بن ثقيبة وعنان بن مغامس ، فأشركهم جميعا في إمرة مكة ، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقيبة من ناحية ، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى ؛ فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق ، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة (١) . ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان في رشوة رجال مصر أو إرضاء السلطان برقوق بالهدايا ، بل لأنه حين رأى كبيشى - رسوله إلى مصر - إقبالا من رجال الدولة على عنان ، وافق على مرسوم السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة ، وعرف أحمد بن عجلان بما دار في مصر ، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أو قتل عنان ، فقرر الرأي الأخير . وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقيبة وإخوته الخمسة وقبدهم جميعا سنة ٧٨٧ هـ - ١٣٨٥ م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم ، فإنه ما طل في تنفيذه وبقي الإخوة بالسجن . أما عنان فإنه تمكن من الحرب واستجار بالسلطان برقوق ، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض (٢) ، ورد عليه بقوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة (٣) . غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق ، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان ، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحه في الحجاز ، وتجارته في البحر الأحمر ، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر . غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين : أولهما ، عزم السلطان على التخلص منه ، وثانيهما ، خوفه من انتزاع أقاليمه من إرسل . ومهما يكن من شيء فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨ هـ - سنة ١٣٨٦ م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان في الطعام (٤) .

وحين مات أحمد بن عجلان في ٢٠ شعبان سنة ٧٨٨ هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخذع محمد بن أحمد بن عجلان ، الذي طالب السلطان بأن يخلف أباه ، بأن أرسل إليه العهد والخلافة بولاية مكة ، على حين أنه أذن لعنان في التوجه صعبة بعة الحج (٥) . وأمر أمير الحج بقلعة مراعاته لعنان في الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر . والخلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد

(١) القامى : الثمين في تاريخ البلد الأمين - ١ ورقة ٢٤ ب .

(٢) نفس المرجع : وأجزاء ورقة ١٢٥ .

(٣) الخزرجي : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣ .

(٤) De Gaury : Rulers of Mecca, p. 102 .

(٥) المرجع السابق والمصفحة .

حياة يوم من موت والده كما ساعد قاتله على الاختفاء بين الحجاج ، ومكّن عنان من تتولى إمرة مكة (١) .

غير أن عودة عنان إلى مكة لم يجد السلطان برقوق شيئاً ، إذ ظهر ضعفه من عدم تحدرته على التغلب على ابن عجلان ، الذى أغار على جدة واستولى على ما فيها من أموال وغلل تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن تقيّة وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة ، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة (٢) . وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى على بن عجلان إمرة مكة . غير أن أصحاب عنان تمسكوا بامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان ، وتمكّن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة ، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان . غير أنه طلب عناناً لخدمة الحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله ، ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان . ولم يجد السلطان بداً من أن يترك المسألة جانباً ، وأرسل سنة ٧٨٩ هـ - سنة ١٣٨٧ م إلى عنان يقول له : انت على بولايك فاقبل ماتقذر عليه (٣) . غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين نهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه (٤) فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠ هـ سنة ١٣٨٨ م إلى مصر . حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل . وظل بها حتى عاد السلطان حاجبى إلى العرش وسعى عند بليغا الناصرى لإعادته فأجابه . غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقيام محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة ، فحسب منطاش عناناً مع بعض مماليك برقوق سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م ، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش هوفر إلى دمشق . وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر شفع بطا ، كبير مماليكه ، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار على بن عجلان على نصف إمرة مكة معه (٥) . واتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لخاجته ، فإذا قضياها خرج منها ولكل منهما فيها ثواب ، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المنحصل ، وبعضهم للحكم بها ، وأن يكون التوادع عنان والإشراف مع على (٦) .

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة ، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان

(١) المينى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١ .

(٢) القامى : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٥ .

(٣) نفس المرجع ، ورقة ١٩٦ .

(٤) ابن قاضي شهبة : خيل تادييخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨ .

(٥) De Gaury : Op. Cit. p. 103

(٦) القامى : العقد الثمين ج ٣ ورقة ٢٩٦ ب ، ١٩٧ أ .

سنة ٧٩٤ هـ - سنة ١٣٩٢ م ، وهو ما يقتله وأخرجوا نوابه من مكة ، فأنعدهم للأمن في داخله البلاد . وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد . وإذا حضر على وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى على بمفرده ، وذلك بسبب ما قدمه على إلى السلطان من الهدايا الوافرة (١) . ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر ، ورتب له ما ينقذه ثم عاد فمجنه بالقلعة في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م (٢) .

و حين قامت الحرب سنة ٧٩٧ هـ بين أبني حسن وقواد مكة ببطن مر ، وقتل فيها الشريف على بن عجلان ، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها أبني حسن ، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان ، الذي كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه ، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير بليغا السلمي ليتمكن من تولى مهام وظيفته ، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التي نهيت في العام الماضي (٣) .

وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار ، وخاصة تجار السلطان ، وتجار اليمن . وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ومحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمناجر إلى السفن ، كما أسقط عن التجار ثلث الحياية ، ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر ، وسر السلطان برقوق بمحمد حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعيتين سنة ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م (٤) .

وظل حسن بن عجلان على ولايته للسلطان برقوق ولايته فرج من بعده ، وأثرى من النشاط التجارى ثراء كبيراً ، حتى اقتنى عدداً كبيراً من الممالك سنة ٨٠٣ هـ . وفي العام الثاني أصبح حسن بن عجلان من القوة والنفوذ ما جعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين ، في أحدهما ألا يمنع الدعا بمكة لسلطان اليمن ، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن ، وفي الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر في أثناء السنة على صاحب مكة يد ولا حكم ، بل « يعضدونه ويقرون كلمته ويعلون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالفه وطلبكم للقتال قاتلوه » (٥) . ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه ألوية في أيدي أمراء مهمل الذين صار

(١) الخزرجي : درو القرائن المنظمة ص ٢٧٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٧ أ .

(٣) كان السلطان برقوق قد أرسل قصداً إلى ينيج للبيع فاستولى عليه أميرها - الفاسي العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٥ أ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٦ أ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٨ ورقة ١٥٧ ب .

يبداهم الأمر . وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير يسوق  
أمير الحج سنة ٨٠٤هـ - سنة ١٤٠١ م (١) .

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصة حين  
استولى سنة ٨٠٥هـ - سنة ١٤٠٢ م - على الذهب الموجود بمركب في طريقه إلى اليمن ، يملكه  
ابن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر ، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج  
عن عثان ليهدد به حسن بن عجلان ، ولكن المنية عاجلت عثاناً قبل أن يصل إلى مكة (٢)  
ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان ، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨هـ  
هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته . وفي سنة ٨٠٩ هـ - سنة ١٤٠٦ م - وافق على ما طلبه  
حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له في إمرة مكة ، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً  
في علاقة الدولة المملوكية الثانية بإمارة مكة . وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١ هـ -  
١٤٠٨ م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات في الحكم ، وأن يلقب  
حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية (٣) .

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن سنة ٨١٢ هـ - سنة ١٤٠٩ م ، وما تبع  
هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج ، وأمره بالقبض على  
حسن وولديه . غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمرأه  
مصر وإرساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مقال (٤) .

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالي  
في عهد دولة المماليك الأولى ، فإنه وجد نفسه مضطراً لتحمل سيطرة حكام مصر في عهد  
دولة المماليك الثانية . على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مداواة حكام مكة  
والاكتفاء بذكر أسمائهم في الخطبة وإرسالهم الهدايا (٥) .

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن ، وسبب هذا حرصه  
على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها .  
ووضعت هذه السياسة في تبادل الهدايا بين الدولتين . بيد أن السلطان برقوق هو الذي

---

(١) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤هـ - ١٤٠١ م بسد النوافذ التي بالجانب الغربي من الكعبة؛  
فأمر حسن بفتحها ، كما تحدها حين أمر بنقل السوق من المسعى فألنى قراره . راجع الفاسي :  
العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٧ ب .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٧ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٥٩ ب .

(٤) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٦١ ب ، ١٦٢ أ .

(٥) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٦٣ ب .

بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧ هـ سنة ١٣٨٥ م ثم توالى هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة في نهاية الدولة المملوكية الأولى (١) . ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩ هـ - سنة ١٣٩٧ م إلى السلطان برقوق . واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار ، وسيف على بالذهب ومرصع بالعقيق ، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض ، وأربع مراوح مذهبة ، وعدد من العدد الحربية المذهبة ، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى والعود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار . وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمى برهان الدين المحلى (٢) .

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة في ميناء عدن التي أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب (٣) . بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة - من أجل تجارتهم في الحجاز - على حساب ميناء عدن . ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم في مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشى قوة أمراء مكة ، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلائن حين قام بمحاولته سنة ٨١٢ هـ - سنة ١٢٠٩ م لغزو بلاد اليمن (٤) . وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة ، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسى ، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية . ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطريق النصارى اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر في ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان (٥) .

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أُرعد سنة ١٣٨١ - ١٤١١ م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة في مصر والناجمة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ١٨٢ .

راجع كذلك السلاوى : مختصر التواريخ ورقة ٨٨ أ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٣ .

(٣) Piloti : Op. Cit. p. 42

(٤) Piloti : Op. Cit. p. 42

(٥) المقرئى : الإعلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣ .



أسوان في أواخر سنة ١٣٨١ م ، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذي أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية ، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين ، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولا إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر عليه هذا الهجوم ، ويطلب منه العودة إلى بلاده ، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة . وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضي برهان الدين لإبراهيم الديماطي (١) .

ويبدو أن الملك داود بن سيف أُرعد حرص بدوره على اتصال الود (٢) . فلم يتردد في إجابة الطلب ، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة ١٣٨٢ م ويحث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون رجلا ، واشتملت على طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صينغ على هيئة الحمص (٣) . ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين في الحبشة ، وأكد أنهم في حالة طيبة ، وأن لهم مطلق الحرية في التنقل والكسب . وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك والنصارى ، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التي عزلوا منها كما بين له أن حسن معاملة المسيحيين في مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين في بلاده والعكس . غير أن داود لم يكن موافقا حين هدد بتحويل مجرى النيل عن مصر . ولكن حرص السلطان برقوق على السلام بين الدولتين جعله يقبل الهدية ويرد عليها (٤) .

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر (٥) .

غير أن داود عاد في سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م ، وانتهاز فرصة الشحنة بين الأمراء في سلطنة فرج ، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع ، وقتل من أهلها من المسلمين عددا كبيرا (٦) .

على أن دولة المماليك الثانية الناشئة برغم هذا أسهمت بقسط كبير في تطوير الحياة في الحبشة ، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أُرعد الذي تولى سنة

(١) المسقلائي : إنباء العمر ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) راجع : الحيمى سيره الحبشة ص ٢٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ (خطيبه) ص ٤٧١ .

(٤) راجع اسكاروس : نوايغ الأقطاب ص ٤٨ - ٥٨ - انظر نص الرسالة بالملحق

رقم ٩ ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٥) المسقلائي : إنباء العمر ج ٢ ورقة ٢٥٣ أ ، ب

(٦) Budge : A Hist. of Ethiopia VI p. 300

١٤١٢ م فخر الدولة، وهو أحد رعايا دولة المماليك الثانية من القبط اليعاقية، ورتب أمور مملكته، ونظم له طريق جبابة الأموال، كما أنشأ له ديواناً، ووضع له القوانين التي ضببطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشى يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء (١).

ويبدو أن هذا العمل الذى قام به فخر الدولة للملك الحبشة شجع على استمرار الاتصال بالحضارة المملوكية الجركسية فاستقدم عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا فى وظائف «زردكاش» بمصر فعمل هؤلاء الملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقرئى أثر هذا التقدم فى السلاح فى الحبشة التى ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحرايب، إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشى فنون الفروسية من رمى الشباب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث فى تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المماليك الجراكسة فى تعليم الأحباش استخدام النفط فى الحروب (٢).

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنو كتر على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥ هـ - ١٣٨٥ م هاجم بنو كتر أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعيين الأمير حسين بن قرط التركمانى والياً على أسوان (٣). غير أنه كثيراً ما التحجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠ هـ - ١٣٩٨ م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافق على تعيين إبراهيم الشهايدى والياً على أسوان، وأعادته إلى بلاده (٤). ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر فى عهد فرج بهجمات بنى كتر.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج أواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

(١) المقرئى: الإنعام بأخبار من بأرض الحبشة ص ٤-٥.

(٢) نفس المرجع ص ٤.

(٣) المسقلاى: لإنهاء الغمر ج ١ ص ٢٢٤.

(٤) العيى: عقد الجان ج ٢٥ ورقة ٢١.

ملاحق توضيحية  
من مصادر عربية وفارسية



الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسي شرف الدين علي يزدي (ح ١ : ص ٦٤٢ - ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥ هـ . ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق الثرى إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار ، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة .

والمُلحق الثاني منقول من المؤرخ المصري أحمد بن علي المقرئ : «السلوك لمعرفة دول الملوك» ( صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨ ) وهذا الملحق الثاني كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦ هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظي ، ويحتوي على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له .

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثاني من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن علي المقرئ : «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ ، وفي هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك .

والمُلحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين علي يزدي ( ح ٢ ص ٢٦٦ ) ، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تريباً كبيراً من أسرة تيمورلنك ، هو القائد أطمش الذي وقع في يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هـ .

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج ، ومطالبته بإعلان الطاعة ، والدعاء له في خطبة الجمعة بالقاهرة . وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية ، وهو منقول كذلك من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين علي يزدي (ح ٢ ص

٣١٥ - ٣١٦) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر ، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته ، وهو في الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارتبه المروعة .

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (٢ - ص ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق .

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (٢ - ص ٣٢٧) ، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محبط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال .

والملحق الثامن منقول من مخطوط ، «كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا ٦ ص ٢٤٦) ، وهو من تأليف محمد بن خوندشاه ميرخواند ، وهذا الكتاب بالفارسية كذلك ، وتاريخه سنة ٨٠٥ هـ ، وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثماني في واقعة أنقرة ، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له في خطبة الجمعة .

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف» ، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ - ٣٣٩) ، وهو كتاب من النجاشي داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون في الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية ، وينفى النجاشي ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشي للرعايا المسلمين في بلاده ، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى في بلاده ويهدد بقطع مياه النيل ، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان للنصارى في مصر .

ويود كاتب هذه السطور أن يَغتَم هذه المقدمة القصيرة بكلمة شكر كبيرة للسيد الدكتور عبد النعم حسنين أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفصله بالقيام بترجمة النصوص الفارسية المتقدمة إلى اللغة العربية ، وهى نصوص أضافت إلى قيمة هذا الكتاب معلومات جديدة بصدد مراحل العلاقات بين السلطانين برقوق وابنه فرج وتيمورلنك .

وأرجو أن يجد القارئ الكريم في هذه الملاحق بعض ما ينشده من معرفة لأحوال الشرق الأوسط في أوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

## الملاحق (١)

كتاب من تیمورلنک إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدی : ظفرنامه ، ١٥ ، ص ٦٤٢-٦٤٣) .

النص الفارسی :

«مضمون رسالت آنکه بیش ازین بادشاهان کامکارکه از نسل جنکیزخان بودند باملوك آن ممالك منازعت داشتند وبدان واسطه بسی زحمت وتشویش باهالی شام وسكان آن نواحی میرسید ودر آخرمیان ایشان رسل ورسایل متوا ترشد وقضیه بمصالحات انجامید وآن معنی موجب امن وامان عالم وعلمیان کشت وجون بادشاه سعید ابو سعید بها درخان انارالله برهانه بجوار رحمت حق بیوست واز نسل جنکیزخان با دشاهی صاحب شوکت نافذ فرمان در ایران نمائند وملوك طوایف بدید آمدند هرج ومرج بحال عالم راه یافت این زمان چون سابقه عنایت بی غایت ممالك الملوك جل وعلا تمام ممالك ایران تا عراق کمدر جوار آن مملکت واقع است مسخر فرمان ماکودانید خیر اندیشی ونیکو خواهی خلاق اقتضای آن می کنند که حق همسایگی رعایت کرده ابواب مراسله ومکاتبه مفتوح کرد ودوایلیجان ازهرد وجانب در آمد وشد باشندتا راهها ایمن شود ونجار جانیین بامن وحضور تردد توانند نمود وابن معانی هرابته مستلزم معمور می بلاد وآسایش عباد تواند بود والسلام علی من اتبع الهدی والحمد لله رب العالمین » .

ترجمة الكتاب :

«لما كان بيت جنکيزخان في حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام ، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاق الرسل ، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين ؛ غير أنه منذ وفاة الإليخان العظيم سعيد أبوسعید بهادر لم يحكم في بلاد فارس حاکم من نسل جنکيزخان الذي نظم أمور الناس ، ولكن على العکس قام حکام في کل الإمارات في هذه الامبراطورية الكبيرة مکان ملوکها ، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية . أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد ، وأدان لسيفنا المظفر کل بلاد فارس والعراق العربي الذي تتاخم حدوده حدود بلادکم ، فإن المحبة التي ندين بها لشعبنا تتطلب بحکم الجوار أن تبادل الكتب ،

وأن يأتي الرسل ، ويعودوا في يسر بين بلدنا ، وأن ينتقل تجار البلدين في أمن حتى تنتمش البلاد ، ويكثر السكان ، ويعيشوا في سلام . ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلائكم بعنايته إن سلكنم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين .

## الملحق (٢)

كتاب تيمورلنك ( الكتاب الثاني ) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦ هـ (المقرئى : أحمد بن على : السلوك ص ٣٧ - ٢٣٨) .

« قل اللهم مالك الملك (١) فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢) .

اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي (٣) ، ولا نرحم لباكي (٤) ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهننا . قد خربنا البلاد وأبتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها ، وملكتنا بالشوكة أزمته ، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل (٥) فقل له :

إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٦) ، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ورماحتنا خوارق وأستتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كمعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقوياء ، وملكتنا لا يرام ، وجارنا لا يضام — وعزنا أبدا لسؤدد مقام ، فمن سالنا سلم ، ومن رام حربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم ، فلا تلوّموا (٧) إلا أنفسكم ، فالحصون منا مع تشديدها لا تمتنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ،

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦) .

(٢) القرآن الكريم : سورة الزمر : ٤٦ .

(٣) ، (٤) كذا في الأصل .

(٥) كذا في الأصل .

(٦) القرآن الكريم : سورة النمل : ٣٤ .

(٧) كذا في الأصل .



ودعأؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم ، وقد أكلتم الحرام ، وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددتكم لكم النار وبئس المصير : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آيَتَائِهِ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا<sup>(١)</sup> ، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك ، وقد قتلتم العلماء وعصيتهم رب الأرض والسماء ، وأرقتهم دم الأشراف ، وهذا والله هوالبغى والإسراف ، فأنتم بذلك فى النار خالدين ، وفى غدى ينادى عليكم : فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون<sup>(٢)</sup> ، فأبشروا بالمدلة والهوان ، يا أهل البغى والعدوان ، وقد غلب عندكم أننا كفره ، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء ، وتضرع الحرب نارها ، وتضع أوزارها ، وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادى منادى الفراق : فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ<sup>(٣)</sup> ، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً ، هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا<sup>(٤)</sup> . وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ<sup>(٥)</sup> ، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام

(١) القرآن الكريم سورة النساء : ١٠ .

(٢) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠ .

(٣) القرآن الكريم سورة الحاقة : ٨ .

(٤) القرآن الكريم سورة مريم : ٩٨ .

(٥) القرآن الكريم سورة النور : ٥٤ .

### الملحق (٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٨٧٩٦ هـ :

(المقريزي ، أحمد بن علي : السلوك ، صور شمسية ، ج ٣ ص ٢٣٨)

» بسم الله الرحمن الرحيم

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ  
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ<sup>(١)</sup> حصل الوقوف على ألفاظكم  
الكفرية ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنازية وسيرة الكفرة  
الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ،  
وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبدة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ،  
فذلك أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، وتكفيكم  
هذه الشهادة الكافية ، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ  
لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ  
مَّا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، كُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِين<sup>(٢)</sup> ،  
ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا خبركم  
من حين خرجتم ، أنكم كفرة ، ألا لعنة الله على الكافرين ، من تمسك بالأصول فلا  
يبالي بالفروع . نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب ، ولا يضرنا رب ، اقرآن علينا  
نزل ، وهو سبحانه بنا رحم لم يزل ، فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنار  
لكم خلقت ، وبلودكم أضمرت ، إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ<sup>(٣)</sup> ، ومن أعجب  
العجب تهديد التوت<sup>(٤)</sup> بالثوت<sup>(٥)</sup> ، والسباع بالضباع ، والكمأة بالكراع .  
نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية ، وسيفونا يمانية ، وليوثنا مضرية ، وأحفنا

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران : ٢٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة الكافرون .

(٣) القرآن الكريم : سورة الانفطار : ١ .

(٤) التوت جمع رت وهو الرئيس والسيد ( المعجم الوسيط ) .

(٥) كذا في الأصل .

شديدة المضارب ، وصفتنا المذكورة في المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتل منا أحد فيبينه وبين الجنة ساعة ، وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup> . وأما قولكم : قلوبنا كالجبال ، وعدنا كالرمال ، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم ، كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(٢)</sup> . الفراروا القرار من الرزايا ، وطول الهلايا ، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ<sup>(٣)</sup> . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، تطلبون منا طاعة ، لاسمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، في نظمته تركيك ، وفي سلكه تليك ، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان ، أكفر بعد إيمان ، أم اتخذتم إلها ثان ، وطلبتم من معلوم رأيكم أن تنج ربكم ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا<sup>(٤)</sup> ، قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقاتله ، وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب ، كَلَامُنَا كُتِبَ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَرِئُوهُ مَا يَقُولُ<sup>(٥)</sup> ، إن شاء الله تعالى [لقد

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة : ٢٤٩ .

(٣) القرآن الكريم : سورة المائدة : ٥٦ .

(٤) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩ - ٩٠ .

(٥) القرآن الكريم : سورة مريم : ٧٩ - ٨٠ .

خَلَطْتُمْ فِي الْأَمْرِ فِي الَّذِي أُرْسِلْتُمْ [١] وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢) وَالسَّلَامُ .

#### الملحق (٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كته من ملطية في شهر المحرم سنة ٨٠٣ هـ  
(شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه ٢ ، ص ٢٧٦)

النص الفارسي :

«أزیدرت انواع حرکات نابسندیده بظهور آمد ازا نجمله بقتل ابلجیان ابن جانب  
بی موجی فرمان داد وائلمش راکه ازبند کان درگاه ماست محبوس کردانید  
ویازنفرستاد وجون اولیاس حیات عاریتی بازسپرده ، برشش وجزای اوبدیوان  
قیامت افتاد وتومی بایدکه برخود واهالی مملکت رحم کنی وائلمش رادوزمان روانه  
ابن طرف سازی تا از ظلام قهر وانتقام سباه خون آشام ماروز سلامت اهل مصر وشام  
پشام نرسد واکربوسوسه شیطان بلجاج وعناد خلاف ابن معنی بخاطر راه دهی  
جميع آن دیار وبلاذ ازمروور وعبور عساكر منصور وبران هدشد ووزر ووبال خون  
ومال مسلمانان بکردن توخوا هدبود »

ترجمة الكتاب :

« لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جعلتها قتله رسلنا دون سبب ،  
وحبسه أطمش الذي كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه . ولما أسلم والدك وديعة  
الحياة فإن سؤاله وجزاه قد أوكل إلى الباري يوم القيامة . وينبغي عليك أنت أن ترحم  
نفسك وأهل مملكتك ، وأن تعيد أطمش إلينا حتى تنجي أهل مصر والشام من انتقام  
جيشنا الذي يتحرق إلى الثأر . وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان  
اللجاج وعناد الخلاف ، فإن جميع تلك الديار والبلاذ سوف تصير خراباً بمجرد مرور  
عساكرنا المنصورة وعبورها فيها . وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأمواهم في  
عقلك »

(١) مابين الحاصرتين من ابن تفرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة  
سنة ١٩٥٦) .

(٢) القرآن الكريم : سورة الشعراء : ٢٢٧ .

## الملحق (۵)

کتاب تیمورلنک إلى السلطان فرج فی جمادی الأولى سنة ۸۰۳ هـ حين تقدم  
تیمورلنک لحصار دمشق (شرف الدین علی یزدی : ظفرنامه ، ج ۲ ص ۳۱۵ - ۳۱۶)  
النص الفارسی :

« آثار حزم وعزم مادر کارها دانسته اید وعلو همت مادر تحصیل مطالب و اتمام  
ما قصد و مآرب شناخته و عاقلان دانند که دا من کبر مردان در امور غیرت است  
و حمیت اکرباد شاه است و اگر رعیت و مقصود اصلی پادشاهان از کشیدن لشکر  
و کشادن کشور با آن همه خوف و خطر رعایت ناموس است در حال و بقاء ذکر  
جمیل در مال نه مجرد جمع مال و تکثیر منال » بیت

« همه کار جهان ناموس و نام است »

« و کر نه نیم نان روزی تمام است »

یکرات اُتلمش را طلب داشتیم و نفر ستادید و دران جزری قضیه جندان تعلل و تأخیر  
کردید که دست حمیت عتار عزیمت ما باینجانب تافت و بسی خرابی و خلل باحوال  
و اوضاع مردم این مملکت راه یافت » بیت

کراز کوه برسی بیایی جواب که شاخ خطا میوه ندهد صواب

با این همه اگر اُتلمش را ارسال نمایید و سکه و خطبه بالقاب ما بیارید تا بساط نزاع  
در نور دیده شود و بر خود رحم کرده باشید و بر اهالی این دیار و کر نه لشکر جرار  
خونخوار مارا قتل مخالف و قهر دشمن و شهر گرفتن و کندن رسم معهود است و غایت  
مقصود » نظم

« طریق مدارا و راه ستیز »

« کران امن خیزد و زین و ستخیز »

« نمودم بتو عقل را کار بند »

« و زین هر دوره کن یکی را بسند »

ترجمة الكتاب :

« لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا في الأمور ، وعلو هممتنا في تحصیل المطالب ،  
و اتمام المقاصد والمآرب ، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من  
للغيرة والحمية ، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب . وإن الهدف الأصلي

للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس في الحال وبقاء الذكر الجميل في المال ، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المال .

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب ، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز

وقد طلبت أطلمش مرات ، ولكنكم لم ترسلوه وتعلمم بعلل واهية لتأخير إرساله ، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم ، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم .

« إذا نطق الصخر ، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً »

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش ، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا ، وطويت بساط النزاع بيننا ، ورحمت نفسك وأهل ديارك ، لانهى كل شيء ، وإلا فإن جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين ، ويقهر المعاندين ، ويستولى على الديار ويقتلع الرسم المجهود ويبلغ غاية المقصود .

« هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج »

« الأول يؤدي إلى الأمن والثاني يؤدي إلى الحرب »

« وقد أظهرت لك العقل فانتصح »

« واختر طريقاً من الطريقين »

(الملحق ٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه ج ٢ ص ٣١٧)

النص الفارسي :

« ما بند كان در مقام اطاعت واقبياديم واتلمش راتابنج روز ديكر بفرستيم واكر انحضرت ازسر جرايم ما دركلرد بعد ايزن در اقامت وظايف فرمان بردارى وطاعت كذارى تقصير واهمال جايز نداريم وبآنجه در مكنت وتوان ما كنجند رضاي شريف بند كان ايشان بدست آريم عواطف پادشاهانه »

ترجمة الكتاب :

« نحن عبيد في مقام الطاعة والانقياد . وسنرسل أطمش في خلال خمسة أيام . فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر ، وإظهار الخضوع وسنعمل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » .

#### الملحق (٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ( شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه ، ج ٢ ص ٣٢٧ )  
النص الفارسي :

« آنچه دی روز واقع شد غوغای عام بود بی اختیار ما جمعی جهال و اوباش از نادانی جسارت نمودند و سزای خود دیدند ما بر همان عهدیم که عرضه داشت کرده ایم اگر لشکر امروز مصاف موقوف دارند و بسلامت فرود آیند فردا هرجه فرمان انحضرت باشد کاریند شویم و بعد از تقصیرات گذشته حسب المقدور قیام نماییم » .

ترجمة الكتاب :

« إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا ، إذ أن جمعا من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم . ونحن باقون على العهد الذي عرضناه ، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم ، فإننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به ، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور » .

#### الملحق (٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥ هـ ( ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٦ ، ص ٢٤٦ ) .

النص الفارسي :

« بنصرت إلهي وعنايت بادشاهی تمام مملکت روم در تحت تصرف و تسخير بندکان درگاه ما قد ارکرفت باید که سکه و خطبه ولایت شام و مصر به ولقب هما یون زیت ما وزینت دهد و اطمش رادر زما ت بدرگاه عالمیناه روان سازد و اگر دسین

أبواب تغافل جازيز دانديفين داندكه رايت نصرت مال بعد إذ مراجعت ازديار روم متوجه مصر وان مرزوبوم خواهد شد هرجه دردل اشم كتم توداني بعد از اين وقد أعذر من أنذر .

ترجمة الكتاب : « أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله ، وعناية السلطان تحت حكم أنبا عنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم ، وأن تطلقوا سراح اطمش في الحال ، وترسلوه إلى بلاطنا الذي هو ملجأ للعالم ، وإذا تغافلت في هذا الأمر أدنى تغافل فتقنوا أن راياننا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها . وقد قلت كل ما في نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك . وقد أعذر من أنذر . »

#### الملحق (٩)

كتاب من النجاشي داود إلى السلطان برقوق : ( ضمن مجموعة سيرة بسلام ويواصف : مخطوطة بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ - ص ٣٣٩ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالي المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام . ملك الأنام ، الخصاص منهم ، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره . ورفع لواءه ومناره . ومحا يعدله أسباب الظلم وآثاره ، وجعل الفضل بالعدل شعاره . أما بعد رحمة الله تعالى ، يقلد ملك أرضه من يشاء من عبادته ، وحافظ عدل أوليائه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده ، نحمده على ما أولانا من جزيل نعمائه . فنشكره شكراً على جزيل آلائه ، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصيص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة . إنه على ما يشاء قدبر ، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك ، وأنهم منصوبون من الله تعالى في تصرفاتهم ، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين ، ويتعمدون العدل ، والإنصاف في عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين ، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين ، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ اليهود لأوليائهم العهد ماداموا عليه حافظين ، وإنصاف المظلوم من الظالمين . السلام عليكم سلاماً جزيلاً » وأقرأ كما يليق لعظيم سلطانكم . السلام على أمراء دولتكم



الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم أجمعين . آمين .

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم ، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة ، واتفق سائر الملوك والأمراء ، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد والشكر ، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحاييس والمأسورين . وقتحتنا أبواب السبل للتجار والمسافرين وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم ، وفى الوصية بأولادكم والتجار الكارمية وغيرهم فى البر والبحر ، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم ، وبالحاصة ما كان بين الملك الشهيد الأكل عبد سنون جدى ، وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون من المحبة والاتفاق وما كان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريرك وإخوانتنا النصارى بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية . والآن فقد ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومريننا البطريرك أنبا مئثاوس بطريرك الإسكندرية والديار المصرية والحبيشة والثوبة على يد الأسقف المكرم إبراهيم ورفقته ، وكتابكم الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء . فقابلناهما ثم قابلناهما بالإكرام والتبجيل ، وهما يتضمنان أن قوماً أنهما عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول فى ديننا بالجبر والقهر ، وأنهم فى أمور صادرة ، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغى لمن له النظر فى تدبير المملكة الإسلامية ومقابلة القوم المشفين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين ، لأن هؤلاء القوم المذكورين الذين أنهما عنهم إنما هم مقيمون فى بلادنا راضين غير مكروهين ، وكانوا فقراء فصاروا تجاراً مثقلين ، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولاحق ولا مكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد بكرمون . ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا ، فلا تمنعه من ذلك ، وأما الإكراه على الدخول فى ديننا فهذا غير واجب فى كتبنا ، وإن اتفق شئ من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية ، وأما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين . أول ذلك يحر التبل المبارك الذى يجرى فى بلاد الحبيشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جرياتها للديار المصرية بعيدة صعبة المسالك . ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها ، ثم يصرفونها إلى أماكن أخرى ، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها ، ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحها ، والكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية

والمسافرين إلى الأقطار الحجازية ، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بجرأ وبرأ . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذيين ، وتقضية آثار المعتدين . وأما طرق الإقامة بالبلاد الحيشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالصوية عليهم إن كانوا صادقين أو واردين ، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده في البلاد مع وسعها وكثرة أهلها ، فهو على نفسه وماله من الآمين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وبيلادهم التي تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين . وكل من توفي منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله ، ونسلم لإيهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم ، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلاشكوى ، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهي واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهبوا إليكم بما قد طالعتمونا به لا يعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك ، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً ، والقطيعة التي عليه في كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحدمن الأمراء مثل ما تفعلون مع العربان ببلادكم ولكن أسألوا من التجار المتردين إلى بلادنا عن أخبارنا . وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا . وأنتم تعاملون الرعية وأهل اللفة بضد ذلك حتى في أيام والدي الملك الأعز سيف أردع ، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريك ، ولخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها ، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة في أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان، وحصل في حقهم ما لم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين . إذا وجهنا بهم إليكم تقابلوهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام ، وتسمعون منا ما سألناكم فيه وتجيّبوننا عنه بالقول ، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين ، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمنة وغير ذلك . فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أردع ، وامتنع عنك وعن مراسلاتكم ، وكان في عقابه بدا من جهنمك مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا ما يحصل من مصالح لكم من جهننا إذا تقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا جبل الوصل عنكم وصرمناه .

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا ورئيسنا السيد الأب البطريك ، فلنا تحت طاعته ولانستطيع مخالفته . والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الحصريين بنا ، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتي ، وزرع الأمانة يحمل ماري سعادته

بمحل اخرسطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التي تليق بملككم . وكتبتنا  
لأجل الوصاية الأكيدة على أبنينا البطريك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية بما  
حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم  
ورجوع كنائسهم وأديرتهم التي أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا  
بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة . فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين  
الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواسيهم وركوبهم  
معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألناكم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم  
والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك . ومهما فعلتموه مع أبنينا البطريك وإخوتنا  
النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين في حوزتنا وفي سلطاننا .  
وأنتم مطالبون بما يأتيهم . أعاذكم الله من ذلك . ولابد من أن عظمتكم علمت من  
التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف  
وعدهم الله في آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به ، وكيف يسهل  
لنا الطرقات ولا يثقل على علمكم ما نطق به الكتب . ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا  
في توزيع مجارى النيل المبارك وصدده عن الديار المصرية ما لم يكشف لأحد من الملوك  
المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازون  
الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا ، والواصلون إليكم من  
رسلنا تقابلونهم بما يليق بملككم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم  
من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون  
إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسبحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة . وقد  
بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفنا أخرجه من كنيسه  
وذكروا أنه عند بعض الأمراء في بيته ، والقصد من سياستكم تشرقون بإرسال الشهيد  
المشار إليه صحبة . رسلنا وواحد من رعوس بلاد المسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله  
وفقهاء البلاد ، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين  
على الخيول والبالغ المثمنة . ولكن نحن منتظرون ما يرد علينا من الأخبار على يد رسلنا  
سريعا فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا ،  
خيرا كان أوشرا . وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا  
إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به . وجماعة من رسلنا أيضا تخاضعهم  
عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخلوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين ، وهذا غير  
واجب في الشريعة ولا جرت به عادة في زمن المسلمين السالفين .  
وبلغنا أيضا من المترددين إلينا أخبار الملك ، وما هو عليه من العدل والإنصاف ،  
والإحسان والشفقة على سائر خليفة الله تعالى فسررنا بذلك كثيرا ، وفرحنا الفرح الكامل

بما خصصكم الله تعالى من الجلولس على كرسي المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم . ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطريك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التي أخذتموها وعلمتموها مساجد بغير حكم حق فتعيلونها لهم ، وتأمرؤا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والأراخنة الذين منهم ، والكتاب الذين في الدولة ومن تجرد منهم على عوائدهم التي كانت في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخوتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم . ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطريك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم في أعلى كتابنا ، ومهما يحل بهم يكون الذي كان السبب فيه مطالباً بدمائهم . ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أصباؤهم :

سلطان سقرا وأقاليمه . سلطان كترا وأقاليمه . سلطان من وأقاليمه . سلطان فانا وأقاليمه . سلطان أنون وأقاليمه . وبارض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين . سلطان برأرض نوحا وأقاليمه . سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا . سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً . سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا . وسلطان دفاه . فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتي . سلطان سرجه وأقاليمه . سلطان أحواره وأقاليمه . سلطان أريحا وأقاليمه . سلطان كروا وأقاليمه سلطان أمرا وأقاليمه . سلطان ترحموا وأقاليمه . سلطان باراتا وأقاليمه . فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك . وأما الذمة الذين في وسط بلادنا فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى . وإننا ما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلا ليحاط علمكم بذلك ويستدرك فارطه في رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد . فمتى والعياذ بالله لم نجيبوا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم ، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم . لكن أجروا أباينا البطريك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التي كانت في أيام السلطان محمد بن قلاوون . والمرجو من الله تعالى لإصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب ، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه وخفي لطفه ، فإنه سابع مراقبه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمي بلادكم وكل من يلوذ بكم ويقامكم الشريف . ونشكر الله تعالى على الدوام في مدى الليالي والأيام أجمعين آمين .

## المراجع

أولا - المخطوطات العربية

ابن أبي السرور ، محمد بن السيد ( ١٠٨٧ هـ ) :

أ - عيون الأخبار ونزهة الأبصار - دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢ :

ب - التزهر الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المزينة - دار الكتب القاهرة  
برقم ٢٢٦٦ تاريخ .

ابن أبيك ، أبو بكر عبد الله : ( ق ٨ هـ ) :

كتر الدرر وجامع الفرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ .  
ابن بهادر ، محمد بن محمد ( القرن ٩ هـ ) :

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، جزءان ، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩  
تاريخ .

ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو الجاسن يوسف ( + ٨٧٤ هـ ) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ٣ مجلدات - دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ .  
ابن حبيب ، الحسن بن عمر ( + ٧٧٩ هـ ) :

درة الأسلاك في دولة الأتراك ، ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ ح .

ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد ( + ٨٠٩ هـ ) :

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين - النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة  
برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ .

ابن قاضي شهبة ، أبو بكر أحمد بن محمد ( + ٨٥١ هـ ) :

ذيل تاريخ الإسلام ( الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب  
بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ .

الأسدی ، محمد بن أحمد :

التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار — دار الكتب بالقاهرة رقم ٥٤٨٦ تاريخ :

البسطامی ، عبد الرحمن بن محمد علی (+ ٨٤٣ هـ) :

مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع .

البغدادی ، أحمد بن عبد الله (١١٠٢ هـ) :

عيون أخبار الأعيان بمن مضى من سالف العصور والأزمان — مصورة في مجلدين بدار

الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ .

الخزرجی ، عبد القادر بن محمد الأنصاري (ق ٩ هـ) :

دور الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة — دار الكتب بالقاهرة

برقم ٣٧ م .

الخطيب ، علي بن داود (ق ٩ هـ) :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان — نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب القاهرة

برقم ١١٦ م . وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤ تاريخ .

الزياني ، أبو القاسم عبد الله (ق ١٣ هـ) :

الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤ تاريخ .

السلامی ، شهاب الدين أحمد (ق ٩ هـ) :

مختصر التواريخ — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ .

السيوطی ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ) :

تاريخ السلطان الأشرف قايتباي — دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ .

الصفدي ، صلاح الدين خليل ، (+ ٧٦٤ هـ) :

(أ) أعيان العصر وأعوان النصر — ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة

برقم ١٠٩١ تاريخ .

(ب) الوافي بالوفيات — ١٧ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩ تاريخ .

الطيب ، أبو محمد بن عبد الله (ق ١٠ هـ) :

قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر — ٣ أجزاء في ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب

بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ .

المسقلاني ، أحمد بن حجر (+ ٨٥٣ هـ) :

(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر — جزعان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

(ب) تاريخ المائة التاسعة — مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ .  
العيني ، بدر الدين محمود (- ٨٥٥ هـ) :

(أ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان — في ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة  
برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة) .

(ب) السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد — دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤  
القاسي ، أبو الطيب محمد بن أبي العباس (+ ٨٣٢ هـ) :

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين — ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ .  
القدسسي ، محمد أبي حامد (ق ٩ هـ) :

دول الإسلام الشريفة — ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ .  
الكتبي ، عبد الله محمد بن أحمد بن شاکر (+ ٧٦٤ هـ) :

عيون التواريخ — ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ .

القدسسي ، مرغى بن يوسف (+ ١٠٣٣ هـ) :

نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين — بدار الكتب بالقاهرة  
برقم ٢٠٧٦ تاريخ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (+ ٨٤٥ هـ) :

(أ) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ، ج ٤ النسخة الخطية بدار الكتب  
بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ .

(ب) المفتي الكبير — ٤ مجلدات مصورة برقم ٥٣٧٢ تاريخ .

(ج) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار في معجائب الأقطار — دار الكتب  
القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية ، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزي .

النويري ، أحمد بن عبد الوهاب (+ ٧٣٢ هـ) :

نهاية الأرب في فنون الأدب — من ج ١٨ حتى ج ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة  
برقم ٥٤٩ معارف عامة .

النويرى ، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندرى ( + ٧٧٥ هـ ) :  
الإلام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ فى مجلدين  
بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ .

المهيتمى ، أبو العباس أحمد بن حجر ( + ٩٧٤ هـ ) :  
إنحاف إخوان الصفا بنيد من أخبار الخلفاء — دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ .  
بيبرس الدوادر ( + ٧٢٥ هـ ) :

( أ ) التحفة الملوكة فى الدولة التركية — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ .  
( ب ) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ .  
يوساب ، أسقف فوه ( ق ١٥ م ) :  
كتاب تاريخ البطارقة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادى النطرون .

#### ثانيا — المخطوطات الفارسية

ميرخواند ، محمد بن خواندشاه ( ق ٩ هـ ) .  
كتاب روضة الصفائى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء — ج ٦ مخطوط بجامعة القاهرة  
برقم ٩٧٨ فا

#### ثالثا — المصادر العربية المطبوعة

ابن أبى الفضائل ، مفضل :  
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد — نشر E. Blochet ( باريس  
١٩١١ — ١٩٣٢ م )

ابن الشحنة :  
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب .  
ابن الطوائى ، حسن بن حسين ( ق ٩ هـ ) :  
التره السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية ( القاهرة ١٢٩٤ هـ ) :  
ابن العماد ، عبد الحى ( + ١٠٨٩ هـ ) :  
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٨ جزءاً ( القاهرة ١٣٥١ هـ ) .



- ابن القرات ، محمد بن عبد الرحيم (+ ٨٠٧ هـ) :
- تاريخ الدول والملوك ج ٧ ، ج ٨ ، ج ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة  
نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ م)  
ابن لياس ، محمد بن أحمد (+ ٩٣٠ هـ) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ، ج ٢ (بولاقي ٣١١ هـ) .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبوالمحسن يوسف (+ ٨٧٤ هـ) :
- (١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي - ج ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦ م) .  
(ب) التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة حتى - ج ١٢ (سنة ٨٠٨ هـ) طبعة  
دار الكتب بالقاهرة ٩٣٠ - ١٩٥٦ ، طبعة كاليفورنيا ج ٥ ، ج ٦ ، ج ٧ (١٩١٥ -  
١٩٣٩) .
- (ج) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور - نشر Popper .  
(كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٣١) .
- (د) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة - كبر دج ١٧٩٢ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٤ هـ) :
- (١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا - نشر محمد بن تاوريت الطنجي  
(القاهرة ١٩٥١) .
- (ب) المقدمة .
- (ج) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم  
من ذوى السلطان الأكبر - ج ٥ ، ج ٦ (بولاقي ١٢٧٤ هـ) .
- ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهري (+ ٨٧٣ هـ) :
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . نشر Ravaisse (باريس  
١٨٩٤ م) .
- ابن عربشاه ، شهاب الدين محمد بن أحمد (+ ٨٤٦ هـ) :
- (١) عجائب المقدور في أنخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .
- (ب) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء (بولاقي ١٢٩٠ هـ) .
- ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+ ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية - ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ هـ) :

- ابن ممانى ، أبو المكارم بن سعيد (+ ٦٠٦ هـ) :
- كتاب قوانين الدواوين — نشر عطية ( القاهرة ١٩٤٣ ) .
- أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل ( — ٧٣٢ هـ ) :
- المختصر فى أخبار البشر ( الاستانة ١٢٨٦ هـ ) .
- اسكاروس ، توفيق :
- نوايغ الأقباط بالقاهرة فى القرن التاسع عشر — ج ٢ ( القاهرة ١٩١٠ ) .
- الإسحاقى ، محمد بن عبد المعطى ( القرن ١١ هـ ) .
- لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ( القاهرة ١٢٩٦ هـ ) .
- الأنصارى ، أبو عبد الله :
- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ( بطرسبرج ١٨٦٦ م ) :
- الجيرى ، عبد الرحمن ( ١٢٣٧ هـ ) :
- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — ج ١ ( بولاق سنة ١٢٩٧ هـ ) .
- الذهبي ، أبو عبد الله (+ ٧٤٨ هـ ) :
- دول الإسلام — جزءان فى مجلدين ( الهند ١٣٣٣ هـ ) .
- الحيمى :
- سيرة الحيشة — نشر الدكتور مراد كامل ( القاهرة ١٩٥٨ ) .
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن :
- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ( القاهرة ١٩١١ م ) .
- السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (+ ٩٠٢ هـ ) :
- ( أ ) الثبر المسبوك فى ذيل السلوك ( بولاق سنة ١٨٩٦ م ) .
- ( ب ) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — ١٢ مجلد ( القاهرة ١٣٥٣ — ١٣٥٥ هـ ) .
- السلوى ، أحمد بن خالد :
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ( القاهرة ١٣١٢ هـ ) .
- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ ) :
- ( ١ ) تاريخ الخلفاء ( القاهرة ١٣٠٥ هـ ) .

(ب) حسن المخضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

(ج) نظم العقبان في أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧) .

الشوكاني ، محمد بن علي اليمنى ( + ١٢٥٠ هـ ) :

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جزاء ( القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ) .

العريضي ، دكتور السيد الباز :

الفارس المملوكي - بحث في المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس ( ١٩٥٦ ) .

المزاوي :

تاريخ العراق بين احتلالين جزاء ( بغداد ١٩٣٥ م - ١٩٣٦ م ) .

العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر ( + ٨٥٣ هـ ) :

( ١ ) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ٤ أجزاء - حيدر أباد الهند ١٣٤٨ -

١٣٥٠ هـ ) .

(ب) رفع الأصغر عن قضاة مصر - ج ١ ( تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين -

القاهرة ١٩٥٧ ) .

القرماني ، أبو العباس أحمد ( + ١٠١٩ هـ ) .

أخبار الدول وآثار الأول ( بغداد ١٢٨٢ هـ ) .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد ( + ٨٢١ هـ ) :

( ١ ) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءاً ( القاهرة ١٩١٣ ) .

(ب) ضوء الصبح المسفروجي الدوح المثمر ( القاهرة ١٩٠٦ م ) .

الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاکر ( ٧٦٤ هـ ) :

فوات الوفيات ( بولاق ١٢٨٣ هـ ) :

المقريزي ، أحمد بن علي ( + ٨٤٥ هـ ) :

( ١ ) إغاثة الأمة بكشف الغمة - نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور

جمال الدين الشياح .

(ب) الإلغام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ( القاهرة ١٨٩٥ م ) .

(ج) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ( القاهرة ١٩١٦ م ) .

(د) السلوك لمعرفة دول الملوك - ج ١ ، ج ٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة ( القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ ) .

(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - جزءان ( بولاق ١٢٧٠ هـ ) :

النويري ، أحمد بن عبد الوهاب ( + ٧٣٢ هـ ) :

نهاية الأرب في فنون الأدب من ج ١ حتى ج ١٧ ( القاهرة ١٩٢٣ ) .

حاجي خليفة :

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ( ليبزج ١٨٣٥ ) .

خريطة القاهرة والوجه البحري الدولية .

دائرة المعارف الإسلامية .

دحلان ، أحمد بن زيني :

الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣ هـ ) .

رشدي ، راسم<sup>١٧</sup> :

مصر والشراكسة ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

رمزي ، محمد :

القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ( القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٤ )

زرتستين :

تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ ( باريس ١٩١٩ ) .

زيادة ، دكتور محمد مصطفى :

( أ ) المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ( القاهرة ١٩٤٩ ) .

( ب ) نهاية السلاطين المماليك في مصر - بحث في المحلة التاريخية المصرية المجلد الرابع

مايو سنة ١٩٥١

سرور ، دكتور محمد جمال الدين :

دولة بني قلاوون في مصر ( القاهرة ١٩٤٧ ) .

صالح بن يحيى ، ( ق ٩ هـ ) :

تاريخ بيروت - نشر لويس شيخو ( بيروت ١٩٠٢ م ) .

- عاشور ، دكتور سعيد عبد الفتاح :
- قبرص والحروب الصليبية ( القاهرة ١٩٥٧ ) .
- عزت ، يوسف :
- تاريخ القوقاز .
- فريد ، محمد :
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ( القاهرة ١٩١٢ م ) :
- كرد علي ، محمد :
- خطط الشام - ٤ أجزاء ( دمشق ١٩٢٧ ) .
- مؤلف غير معروف :
- كتاب قهر الوجوه العائسة بذكر نسب الجراكسة من قريش ( بولاق ١٢٨٧ هـ ) .
- مؤلف غير معروف :
- مراصد الاطلاع في أسماء الأماكن والباق ( لندن ١٨٥٠ - ١٨٥٩ ) .
- هازارد ، أ.و. :
- أطلس التاريخ الإسلامي - ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة .
- ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ( + ٦٢٦ هـ ) :
- معجم البلدان ١٢ جزءاً ( القاهرة ١٩٠٦ م ) .
- رابعاً : مراجع فارسية مطبوعة
- خواندا مير ، غياث الدين بن همام ( ق ١٠ هـ ) :
- حبيب السير في أخبار أفراد البشر ج ٣ ( ١٢٨٣ هـ ) .
- بزدى ، علي شرف الدين :
- ظفر نامه ج ١ ، ج ٢ ( كلكتا ١٨٨٧ م ) .

خامساً - مراجع أجنبية

- Arnold, T.W. : The Caliphate, Oxford, 1924.
- Atiya, A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
- Ayalon, D. : Studies on the Structure of the Mamluk Army.  
Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1, 1954.
- B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom,  
London 1956.
- C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S.  
1949.
- Browne, E.G. : Literary History of Persia. VIII, Cambridge  
1951.
- Bouvet, L. : L'Empire Mongol, Paris 1927.
- Brockelman, C. : History of Islamic Peoples, London 1949.
- B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and  
Berlin) 1898-1902.
- Budge : A History of Ethiopia VI, London 1928.
- Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16,  
Part 1 and 111, 1954.
- De Bouard, M. : La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris 1936.
- De Clanvijo, R.G. : Embassy to Tamerlane, London 1859.
- De Gaury, G. : Rulers of Mecca, London 1951.

- Delaville Le Roulx, J. : La France en Orient au XIVème siècle,  
2 Vol., Paris 1886.
- Demombynes, G. : La Syrie à l'époque des Mamelouks Paris  
1922.
- Devonshire, L. : L'Egypte Musulmane, Paris 1926.
- D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris  
1824.
- Dozy, R. : Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément  
Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.
- Dussaud, R. : Topographie Historique de la Syria Antique et  
Médiévale, Paris 1927.
- Encyclopedia of Islam.
- Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlane, California 1952.
- Gibbons, H.A. : The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford  
1916.
- Grousset, R. : L'Empire des Steppes, Paris 1939.
- Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levan, 2 Vols., Leipzig  
1885.
- Hitti, Ph. K. : History of the Arabs, London 1937.
- Huart : Histoire des Arabes, 2 Vols., Paris 1913.
- Ibn Arab Shah: Tamerlane or Timur the Great Amir, Eng. tr.  
by Sanders J.H., London 1936.
- Ibn Iyas : Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G.  
Wiet, Le Caire 1945.
- Iorga : Notes et Extraits pour servir à l'Histoire des Croisades  
au XV siècle, T. 11, Paris 1899-1916.
- Journal Asiatique (J.A.).
- Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).
- Kevork, A. : Armenia and the Armenians, New York 1920.
- Kirk, G.E. : A Short History of the Middle East, London 1949.

Lamb, H. : La vie de Tamerlane. Trad. de l'anglais par Robert P.J.

Lammens, H. : La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.

Lane-Pole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.

Le Strange, C. : A) Clavijo Embassy to Tamerlane, London 1918.

B) Palestine under the Moslems, London 1890.

Malcolm, J. : History of Persia, London 1815.

Malet and Isaac : L'Histoire du XIV, XV et XVI siècles, Paris 1927.

Miller : The Latins in the Levant, London 1908.

Morgan, J. : Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.

Muir, W.E. : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.

B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall., Oxford 1902.

Oman, C.W.C. : The Byzantine Empire, London 1915.

Piloti, E. : L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

Poliak, A.N. : A) Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractère Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

Price, D. : Memoirs of the Principal Events of Mahommedan History from the Death of the Arabian Legislator to the



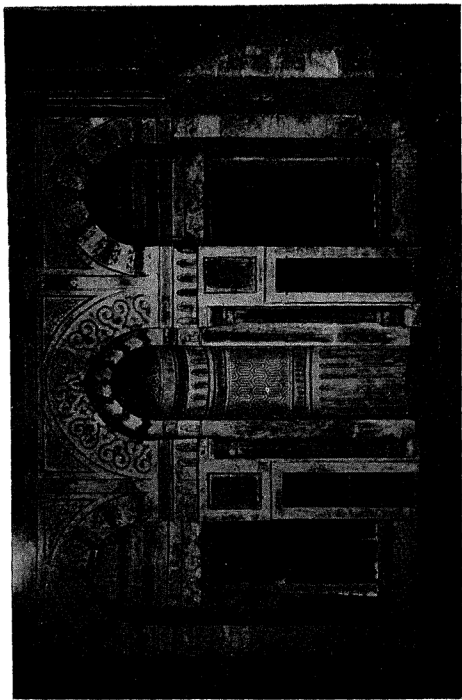
- Accession of the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.
- Quatremère, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.
- Sauvaget, J.: Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.
- Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V, LVIII, 1879.
- Sykes, P.: A History of Persia VII, London 1951.
- Thoumin, R.: Histoire de Syrie, Paris 1929.
- Wiet, G.: Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.
- B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.
- C) Biographie du Manhal Safi.
- Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII  
En. Trans by Darly, London 1723.
- Ziadeh, N.: Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beirut 1953.





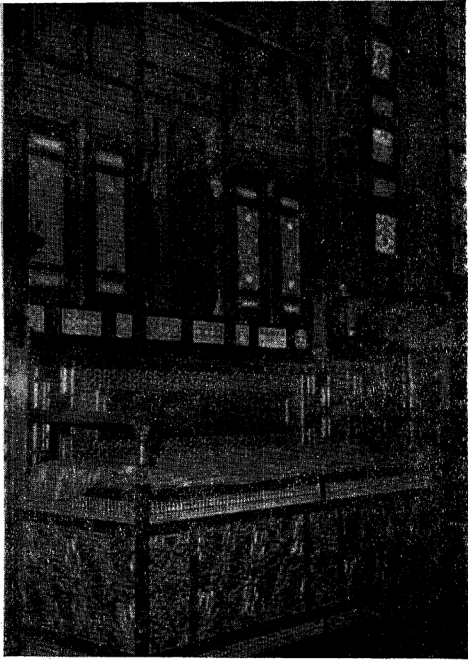
الصورة (١)  
واجهة مسجد السلطان برفوق بالصحراء





الصوره (٢)  
الايوان الشرقى لزاوية السلطان فرج بن برقوق

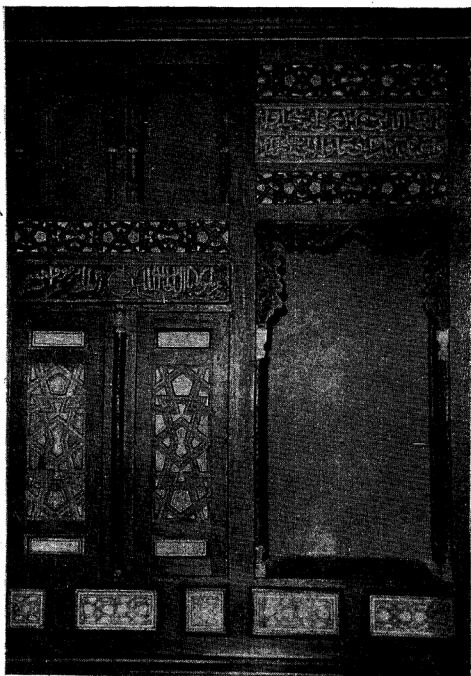




الصورة (٣)  
عرش السلطان يرفوق







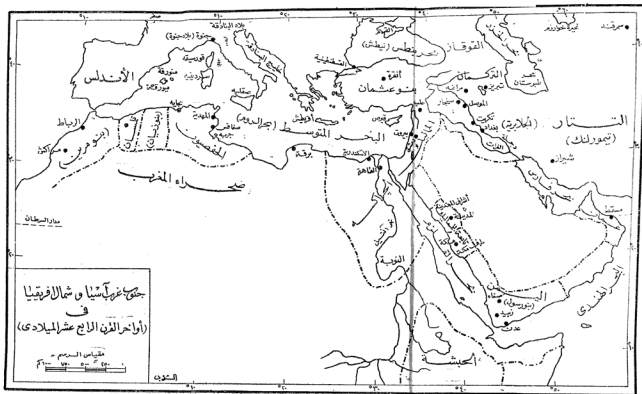
الصورة (٤)

الجزء العلوي من عرش السلطان برقوق وفيه كتابة منقوشة باسم هذا السلطان











## المحتوى

### الصفحة

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة	٥
مقدمة المؤلف	٧
<b>الفصل الأول : أصول دولة المماليك الثانية</b>	١١-٣٥
بداية تكوين فرقة المماليك البرجية	١١
الجنسية الحركسية الغالبة بينهم	١٢
النتائج الخاصة بهم	١٣
إقامتهم في أبراج القلعة وعلبائها	١٣
عدد هذه الفرقة	١٣
ازدياد عددهم زمن السلطان خليل بن قلاوون	١٣
التنويرات الجديدة في تربيتهم	١٣
موقفهم من مقتل خليل سنة ١٢٩٣	١٤
حالاتهم بسلطنة الناصر محمد في تلك السنة	١٥
انضمام البرجية إلى الوزير الشجاعي ضد نائب السلطنة كتيبا	١٥
خلع الناصر محمد وسلطنة كتيبا المغول سنة ١٢٩٤ م	١٧
معارضة البرجية للسلطان كتيبا	١٨
سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦ م	١٩
معارضة البرجية للسلطان لاجين وقتله على أيديهم	١٩
إعادة الناصر محمد إلى السلطنة سنة ١٢٩٨ م	٢٠
ازدياد نفوذ البرجية في الجيش المملوكي	٢٠
أثرهم في سلطة بيبرس الجاشنكير سنة ١٣٠٧ م	٢١
ازدياد المماليك الجراكسية في صفوف البرجية	٢١
المنافسة بين المماليك الجراكسية والمماليك الترك وإعادة الناصر محمد على أيدي الترك	٢٤
اضطهاد الناصر محمد الجراكسة في سلطته الثالثة	٢٦
ثورات الجراكسة زمن السلطان شعبان بن الناصر محمد سنة ١٣٤٥ م	٢٨

٢٩	حركاتهم ضد الترك زمن السلطان حاجي بن الناصر محمد سنة ١٣٤٦
٢٩	ازدياد نفوذ الجراكسة زمن السلطان حسن سنة ١٣٤٧ م
٢٩	انضمامهم إلى جانب أخيه أمير حسين
٣١	ظهور الأمير يلغا العمري التركي واقتناؤه الممالك الجراكسة
٣٣	انقسام اليلغاوية ومقتل يلغا سنة ١٣٦٧ م
٣٣	الزراع بين اليلغاوية وبين السلطان شعبان بن حسين وطرده اليلغاوية من مصر سنة ١٣٦٨
٣٤	ظهور برقوق الجركسى
٣٤	انضمام بقايا اليلغاوية بالقاهرة إلى جانب السلطان شعبان
٣٤	نجاحهم في إعادة اليلغاوية المطرودين
٣٥	سيطرة اليلغاوية على الجيش
٦٠ - ٣٧	الفصل الثاني : الأمير برقوق اليلغاوى ونهاية دولة المماليك الأولى
٣٧	جلب برقوق إلى القاهرة سنة ١٣٦٣ م
٣٨	دخول برقوق فرقة اليلغاوية
٣٨	اشتراك برقوق في ثورة اليلغاوية على السلطان شعبان ونفيه إلى الكرك
٣٩	عودته إلى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣ م
٤٠	قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦ م وتولية ابنه أميراً على السلطنة
٤٢	الصراع بين اليلغاوية والمماليك السلطانية
٤٢	سيطرة اليلغاوية على الوظائف العامة
٤٢	تعيين برقوق في منصب الأمرة المملوكية في خدمة إيفيك البدرى
٤٢	استغلال برقوق للشحناء بين زعماء اليلغاوية
٤٢	تولية إيفيك البدرى الأتابكية سنة ١٣٧٧ م
٤٣	ترقيته برقوق إلى أمير طليخاناة
٤٣	طبع إيفيك في السلطة سنة ١٣٦٧ م وفشله
٤٣	تحريض برقوق للمماليك الترك على إيفيك
٤٤	المنافسة الخفية بين برقوق وإيفيك والتخلص منه



٤٤	الاتفاق بين اليلغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة
٤٤	تعيين برقوق في منصب أمير أخو
٤٥	استبداد برقوق وبركه بالأمر دون يلغا الناصري
٤٦	وصول برقوق إلى منصب الأتابكية سنة ١٣٧٧ م
٤٦	تعيين أقاربه في وظائف الدولة
٤٦	التنافس بين برقوق وبركه واشتداد النزاع بين الترك والجرأكسة
٤٦	مؤامرة في صفوف الجرأكسة سنة ١٣٧٩ م
٤٧	إثارة برقوق العامة على بركه
٥١	انتصار الجرأكسة بزعامة برقوق وسجن بركه
٥٣	ثورة العرب ضد الجرأكسة
٥٤	اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الجرأكسة
٥٤	وفاة السلطان على بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١ م
٥٤	تولية حاجي بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١ م
٥٦	اتجاه برقوق نحو العامة
٥٨	تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢ م

## الفصل الثالث : حكم السلطان برقوق ٦١-٩٢

٦١	مشكلات سلطنة برقوق
٦٢ ٧٤	ثورة الطنغا السلطاني التركي نائب الابلسين سنة ١٣٨٢ م
٦٢	طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣ م في السلطنة
٦٤	كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦ م
٦٤	ثورة الممالك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨ م
٦٦	إعلان السلطان برقوق عداؤه للترك ومحاولته قتل يلغا الناصري
٦٨	توحيد صفوف الترك لمقاومة الجرأكسة
٦٩	إعلان الصراع بين الترك والجرأكسة
٧١	معركة دمشق بين جيش برقوق والممالك الترك سنة ١٣٨٩ م
٧١	عودة جيش برقوق منهزما إلى القاهرة

## الصفحة

٧٥	استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩ م
٧٥	خلع برقوق وإعادة السلطان حاجي إلى الحكم
٧٨	عوامل انقسام الترك على أنفسهم
٨٠	النزاع بين منطاش ويليغا الناصري
٨٥	خروج السلطان برقوق إلى الكرك وإلى دمشق سنة ١٣٨٩ م
٨٨	انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق
٩٠	عودة السلطان برقوق إلى القاهرة وخلع السلطان حاجي

## الفصل الرابع : استقرار دولة المماليك الثانية ٩٣-١٢٠

٩٣	سياسة برقوق نحو الترك
٩٤	الصلح بين برقوق ويليغا الناصري
٩٥	بقاء قوة الترك في دمشق واستماتهم بالمرين
٩٥	قتله يليغا على معظم المماليك الترك
٩٧	عودة الخصام بين يليغا <sup>١٠١</sup> وأسرى وبرقوق
٩٩	ذهاب السلطان برقوق إلى دمشق سنة ١٣٩١ م
١٠١	القبض على يليغا الناصري وقتله
١٠١	فرار منطاش وعودة برقوق إلى القاهرة
١٠٢	تطهير القاهرة من الترك
١٠٣	القبض على منطاش وقتله
١٠٣	مطالبة المرين بالحكم دون الجراكسة
١٠٤	محاولة المرين إقامة الشريف المتأب سلطانا سنة ١٣٩٤ م
١٠٥	موقف السلطان برقوق من باقي الثورات العربية
١٠٧	فشل ميلاً وراثة العرش في دولة المماليك الثانية
١١٠	الصفحة المملوكية الجديدة
١١٧	التغيرات في نظم الحكم والإدارة

الفصل الخامس : دولة الممالك الثانية وجيرانها حتى سنة ١٤١٢ م ... .. ١٢١-١٦٢	
ظهور تيمورلنك في الشرق الأوسط ... .. ١٢١	
حلاته بدولة الممالك الثانية ... .. ١٢٢	
موقف السلطنة المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ... .. ١٤٦	
دولة الممالك الثانية والبنادقة والجنوية والرواوس ... .. ١٤٩	
سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد المغرب ... .. ١٥٤	
برقوق وفرج وإمارة مكة ... .. ١٥٥	
الين والسلطنة المملوكية الثانية ... .. ١٥٩	
علاقة السلطان برقوق بالحيشة والنوبة وأثرها ... .. ١٦٠	
ملاحق البحث ... .. ١٦٣	
الملحق ١	١٦٨-١٦٧
الملحق ٢	١٧٠-١٦٨
الملحق ٣	١٧٢-١٧٠
الملحق ٤	١٧٣-١٧٢
الملحق ٥	١٧٤-١٧٢
الملحق ٦	١٧٥-١٧٤
الملحق ٧	١٧٥
الملحق ٨	١٧٦-١٧٥
الملحق ٩	١٨٩-١٧٦
المراجع	١٩٣-١٨١
صورة ١	١٩٦-١٩٥
صورة ٢	١٩٨-١٩٧
صورة ٣	٢٠٠-١٩٩
صورة ٤	٢٠٢-٢٠١
خريطة الدول المعاصرة لقيام دولة الممالك الثانية	٢٠٤-٢٠٣
خريطة جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي	٢٠٦-٢٠٥
٢١١	

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٤٨ —

(٣٣)

اتتألف

[٣١]

الأدب

مصحح

القاهرة

١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م

